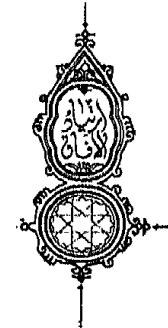


رَحْمَةُ اللَّهِ أَوْرَبَا



رحلة إلى أوروبا (١٩١٢) / أدب رحلات
جريجي زيدان / مؤلف ، [حررها وقدم لها : قاسم وهب]
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة



دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : ٤٤٨٠
الإمارات العربية المتحدة ،
هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنائع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ١١-٥٤٦٠ ، العنوان البرقي : موكيالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨

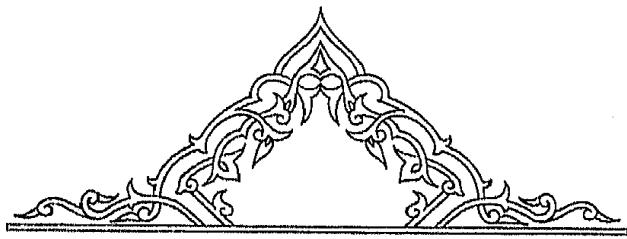
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتف : ٥٦٨٥٥٠١ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo

التنفيذ والإشراف الفني :
الخطوط وتصميم الغلاف :
منير الشعراوي / مصر

الصف الضوئي :
القرية الإلكترونية / أبو ظبي + مطبعة الجامعة الأردنية / عمّان
التنفيذ الطباعي :
سيكوللطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

All rights reserved . No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publishers .

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشرين .

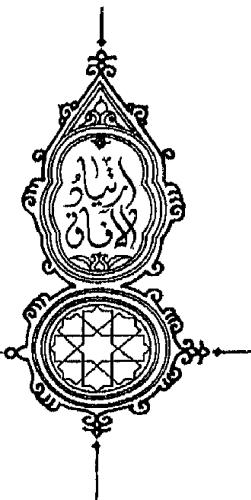


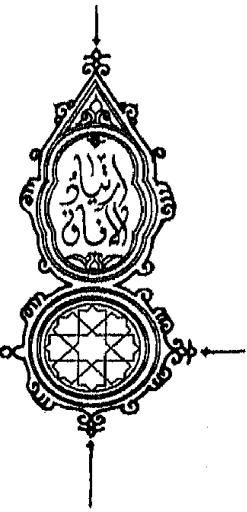
محلن الدار

1912

جَرْجِيرْ زِيدَان

حررها وقدمها: قاسم وهب





يشرف على هذه السلسلة:

نَزَّلَ اللَّهُ تَعَالَى



مَكْتَبَةٌ لِسَارِ الْعَرَبِ

رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس
أ. علاء الدين شوقي

« . . . رأينا على مراسخ التمثيل في باريس وغيرها من المدائن الكبرى في فرنسا وسويسرا ضرباً من التمثيل الانتقادي يسمونه في اصطلاحهم revue . وكثيراً ما ينتقدون الكتاب ، أو رجال السياسة على كتاب الفوه ، أورأي رأوه . وقد شهدنا تمثيلاً من هذا النوع في باريس انتقدوا فيه حرية المرأة الباريسية على أسلوب مؤثر ، فمثلوا عروسأً عُقد عليها لرجل ، وخرجت معه في الشارع فأصبحت كلما رأت رجلاً تعرفه أو رأت أن تتجبه ضمته وقبلته ، وزوجها يرى ذلك . فإذا اعترضها احتجت عليه بحرية المرأة بقولها «إن هذا العصر عصر حرية» . »

من نص الرحلة ص 30

« ومن الأخلاق الفرنساوية الشائعة في باريس اشتغال كلّ منهم بنفسه عن سواه ، فلا يتعرّض أحد إلى شؤون جاره بالاستطلاع أو التجسس . وهو من طبائع أهل المدن الكبرى وطبعي شيوخه في باريس ، وهي ثلاثة مدائن العالم . وتجسس الأخبار والدخول في أحوال الآخرين يكثر في القرى الصغيرة لتفريغ أهلها للأحاديث ، ولأنهم مطلعون على عورات جيرانهم ولا يخلون من التحاسد أو التبغض . »

من نص الرحلة ص 41

تَهْدِيْفُ هَذِهِ السُّلُسْلَةُ بَعْثَ وَاحِدٍ مِنْ أَعْرَقِ الْوَانِ الْكِتَابَةِ فِي ثَقَافَتِنَا الْعَرَبِيَّةِ ، مِنْ خَلَالِ تَقْدِيمِ كَلاسِيْكِيَّاتِ أَدَبِ الرُّحْلَةِ ، إِلَى جَانِبِ الْكِشْفِ عَنِ نَصوصٍ مَجْهُولَةٍ لِكِتَابٍ وَرَحْلَةٍ عَرَبٍ وَمُسْلِمِينَ جَابُوا الْعَالَمَ وَدَوَّنُوا يَوْمِيَّاتِهِمْ وَانْطَبَاعَاتِهِمْ ، وَنَقْلُوا صُورًا لِمَا شَاهَدُوهُ وَخَبَرُوهُ فِي أَقْالِيمِهِ ، قَرِيبَةً وَبَعِيدَةً ، لَاسِيمًا فِي الْقَرْنَيْنِ الْمَاضِيَّيْنِ الَّذِيْنَ شَهَدَا وَلَادَةَ الْاِهْتِمَامِ بِالْتِجْرِيْبِ الْغَرْبِيِّ لَدِيِ النُّخْبِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُشْقَفَةِ ، وَمِحَاوَلَةِ التَّعْرِفِ عَلَىِ الْمُجَمَعَاتِ وَالنَّاسِ فِي الْغَرْبِ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ لَا يَمْكُنُ عِزْلُ هَذَا الْاِهْتِمَامِ الْعَرَبِيِّ بِالْآخِرِ عَنِ ظَاهِرَةِ الْاِسْتِشَارَاقِ وَالْمُسْتَشْرِقَيْنِ الَّذِيْنَ مَلَؤُوا دُرُوبَ الشَّرْقِ ، وَرَسَّمُوا لَهُ صُورًا سَتَمَلَأُ مُجَلَّدَاتٍ لَا تُحْصِي عَدْدًا ، خَصْصُوصًا فِيِ الْلُّغَاتِ الإِنْكَلِيزِيَّةِ وَالْفَرْنَسِيَّةِ وَالْأَمَانِيَّةِ وَالْإِيْطَالِيَّةِ ، وَذَلِكَ مِنْ مَوْقِعِهِمُ الْقَوِيِّ عَلَىِ خَارِطَةِ الْعَالَمِ وَالْعِلْمِ ، وَمِنْ مَنْطِلَقِ الْمُسْتَأْثِرِ بِالْأَشْيَاءِ ، وَالْمُتَهَيِّئِ لِتَرْوِيْجِ صُورٍ عَنِ «شَرْقِ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ» تَغْذِيَ أَذْهَانَ الْغَرَبِيِّينَ وَمَخْيَلَاتِهِمْ ، وَتَمْهِيدَ الرَّأْيِ الْعَامِ ، تَالِيًّا ، لِلْغُزوَةِ الْفَكِريِّيِّةِ وَالْعَسْكَريِّيِّةِ لِهَذَا الشَّرْقِ . وَلَعِلَ حَمْلَةِ نَابِليُونَ عَلَىِ مَصْرُ ، بِكُلِّ تَدَاعِيَاتِهَا الْعَسْكَرِيَّةِ وَالْفَكِريَّةِ فِيِ ثَقَافَتِنَا الْعَرَبِيَّةِ ، هِيَ النَّمَوذِجُ الْأَكْمَلُ لِذَلِكَ . فَقَدْ دَخَلَتِ الْمُطَبْعَةُ الْعَرَبِيَّةُ إِلَىِ مَصْرُ مَقْطُورَةً وَرَاءَ عَرْبَةِ الْمَدْفَعِ الْفَرْنَسِيِّ

لتأسيس للظاهرة الاستعمارية بوجهها العسكري والفكري .

على أن الظاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله ، كانت دافعاً ومحرضًا بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربية لمجتمعاتها جديدة عليها ، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري ، ليتجدد نفسها تملّك ، بدورها ، الدوافع والأسباب لتشدّد الرجال نحو الآخر ، بحثاً واستكشافاً ، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته ، ونمط عيشه وأوضاعه ، ضاربة بذلك الأمثال للناس ، ولينبعث في المجتمعات العربية ، وللمرة الأولى ، صراع فكري حاد تُستقطبُ إليه القوى الحية في المجتمع بين مؤيد للغرب موالي له ومتهمّس لأفكاره وصياغاته ، وبين معادي للغرب ، رافض له ، ومستعدّ لمقاتلته .

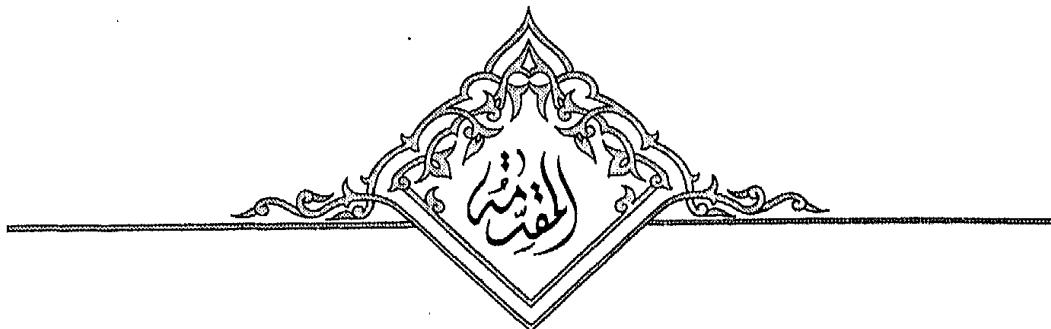
وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكّن من تنميّة الشرق والشريقيين ، عبرَ رسم صور دنيا لهم ، بواسطة مخيّلة جائعة إلى السّحري والأّيروسي والّعجائب ، فإنّ أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتّضحُ من خلال نصوص هذه السلسلة ، ركّز ، أساساً ، على تتبع ملامح النهضة العلميّة والصناعيّة ، وتطور العمّaran ، ومظاهر العصرنة بمثلاً في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق . لقد انصرف الرّحالُ العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالباً ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقَة الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من بابِ الفضول المعرفي ، وإنما ، أساساً ، من بابِ طلبِ العلم ، واستلهام التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث ، واقتناء أثر الآخر للخروج من حالة الشّلل الحضاري التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها . هنا ، على هذا التقلب ، تجد أحد المصادر الأساسية المؤسّسة للنظرية الشرقيّة المذهلة بالغرب وحضارته ، وهي نظرية المتطلّع إلى المدنية وحداثتها من

موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسّر على ماضيه التليد ،
والتأثر إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق الرحالة ، والأفكار التي تسربت عبر سطور الرحالة ، والانتباهات التي ميزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحالة ، على هذا الصعيد ، يشكّل ثروةً معرفيةً كبيرةً ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديةً مشوقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقetty عيون تعجّل وأنفسٍ تنفعل بما ترى ، ووعي يلمُ بالأشياء ويحللها ويراقب الظواهر ويتفكّر بها .

أخيراً ، لا بد من الإشارة إلى أن هذه السلسلة التي قد تبلغ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلة مؤلفة من نصوص ثريةٌ تكشف عن همة العربي في ارتياحِ الأفق ، واستعداده للمغامرة من بابِ نيل المعرفةِ مقرونةً بالمتاعةِ ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قاراته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

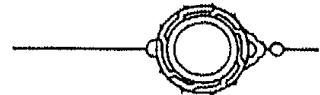
محمد أحمد حلية السويدي



جرجي بن حبيب زيدان 1681 / 1914 كاتب وصحافي لبناني مشهور ، ولد ونشأ في بيروت لأسرة فقيرة . تعلم القراءة والكتابة ومبادئ النحو والحساب ، ولم يكمل تعليمه ، بسبب اضطراره للعمل إلى جانب والده ، حيث انقطع عن الدراسة لمدة تزيد على سبع سنوات ، لكن حنينه إلى المدرسة وتعلقه بالكتب دفعاه إلى متابعة التعلم الذاتي ، فأخذ في تعلم اللغة الإنكليزية ، وقراءة العديد من الكتب في الشعر والأدب والعلوم والرياضيات والكيمياء والفيزيولوجيا وغيرها ، مما أهله لدخول كلية الطب في الجامعة الأمريكية بيروت ، فأحرز تفوقاً في السنة الأولى ، ولكنه تعرض للفصل من الجامعة في غضون السنة الثانية لتزعمه إضراباً جامعياً لمناصرة أحد الأساتذة الذين فصلتهم الجامعة بسبب عرضه لنظرية داروين في النشوء والارتقاء ، وعارضها رجال الدين آنذاك ، فقررت الجامعة فصله ، في حين رأى الطلبة أن هذا الإجراء مناهض لحرية الفكر ينبغي الوقوف ضده بحزم ، ولكن الجامعة أصرت على موقفها ففصلت جميع الطلبة المصريين . وإثر ذلك تلقى الطلبة المفصلون دعوة من وكيل مدرسة الطب في القصر العيني بالقاهرة لمتابعة الدراسة فيها ، وكان جرجي زيدان من جملة الطلبة الذين لبوا هذه الدعوة ،

فانتقل إلى القاهرة نحو سنة 1883م وعقب وصوله بدة وجiezة طرأ على حياته تحول كبير سوف نبيّن في ما يأتي بعض جوانبه .

في مصر



عندما وصل جرجي زيدان إلى مصر في مطلع الثمانينات من القرن التاسع عشر ، كانت قضايا النهضة وأسئلتها تستحوذ على اهتمام النخب المثقفة من المصريين ، وسواهم من وفدوا إليها من الديار الشامية وغيرها ، بسبب من سوء الأوضاع العامة فيها ، وطغيان الاستبداد العثماني ، ومصادرة الحرريات ، ولكن الشاب القادم من بيروت لإكمال دراسة الطب في القاهرة ، سرعان ما وجد نفسه في خضم الجدل الدائر بين رجال الفكر والقلم ، حول استحقاقات التحديث لمواجهة تحديات العصر ، فترك الدراسة ، ليتجه إلى العمل في الصحافة ، حيث التحق بجريدة «الزمان» الصحفية اليومية الوحيدة في القاهرة آنذاك ، وبعد بضع سنوات تولى إدارة مجلة «المقطف» الذائعة الصيت ، عقب رحلة قصيرة إلى إنكلترا ، ثم عقد العزم بعد سنتين على تأسيس مجلة «الهلال» وذلك عام 1892؛ ليجعل منها منبراً مفتوحاً لأهل القلم على اختلاف مواقفهم وأرائهم .

ولعل الهلال على خطورتها ، وأهميةدور الثقافى والتنويرى الذى اضطاعت به منذ تأسيسها ، لم تكن لتتنسع لكل ما يجيشه فى نفس صاحبها من رؤى وأفكار ، فأسند إدارتها لأنجيه «متري»⁽¹⁾؛ ليتفغ للبحث والتأليف ، وليرئس مشروعه الثقافى الريادى بحيث يكون مكملاً للهلال فى بلورة مقتضيات النهضة ومرتكزاتها .

لقد رأى جرجي زيدان أن من ضرورات التمدن أن تعيَّنَ الأمة ذاتها ، وأن تتعرّف إلى جوانب الضعف والقوة في تاريخها؛ لتتمكن من معالجة مشكلات الحاضر ، والتطّلع إلى المستقبل في عالم قطع أشواطاً في مضمار التمدن والرقي . لذلك نظر مؤرخ التمدن الإسلامي إلى مسألة النهضة بعينين فاحصتين؛ عينٍ على الشرق

(1) راجع مجلة الهلال - عدد مايو 1972 ص 5 وما بعدها ، محمد حسن .

تتقرّى تاریخه ، وتفحص حاضرها ، وتعالیم أمراضه ، وعین على الغرب تدرس عوامل نهضته ، وتحلّياتها في كافة الصعد ، وهو لا يغفل في الوقت نفسه عما يعتري مدنية الغرب من مثالب يجدر بنا تحبّها .

إن النظر في عناوين مؤلفات جرجي زيدان يلقى الضوء على مشاغله واهتماماته الفكرية ، فهو رجل نهضوي بامتياز ، مضى جاداً في تأسيس مستلزمات النهوض غير عابع بالعقبات ، فكتب روايات تاريخ الإسلام لربط الناشئة بتاريخهم ، وتوثيق علاقاتهم به ، بأسلوب جذّاب محبّ يفهمه العامة ، وإن كان لا يرضي تطلب الخاصة ، وهذه «مزية لم يوقّ إلى مثلها أكثر من سبقوه ولحقوه من أرباب الأقلام»⁽¹⁾

ثم أُلف كتابه الشهير : «تاريخ التمدن الإسلامي» في خمسة أجزاء ، فأثارت حوله زوبعة من الجدل بين قادح ومادح دامت لعدة عقود ، والكتاب استمرار لما بدأه من التعريف بتاريخ العرب والإسلام . ثم أُلف «تاريخ آداب اللغة العربية» في أربعة أجزاء ، وكان سباقاً إلى هذا النوع من التأليف ، فجاء كتابه هذا مكملاً لتاريخ التمدن الإسلامي ، ومؤرخاً للنشاط العلمي والأدبي المدون باللغة العربية عبر العصور .

إن ما أُلفه جرجي زيدان في الأدب والتاريخ والعلوم يربو على عشرين مؤلفاً ما عدا مجلّدات الهلال الضخمة ، التي تشهد لصاحبها ببعد الهمة ، والسعى الدؤوب لتحقيق هدفِ سامٍ أفنى في سبيله أجمل سنوات العمر . ولعلَّ رحلته إلى أوروبا التي نحن بصدده تقديمهاً للقارئ جاءت تتوسعاً لجهوده السابقة ، وكأنه حينما عقد العزم على القيام بها كان يحسُّ بدنو الأجل ؛ فسارع إلى تنفيذها وتدوين نتائجها بدقة لا مزيد عليها ؛ ليُقدم للقارئ العربي صورة أمنية لتجربة الغرب الحضارية لعلّها تغريه باستلهامها ، واقتقاء أثرها للخروج من حالة التخلف والركود التي رانت على العقول والقلوب لعدة قرون .

رحلته إلى أوربا

لم تكن رحلة جرجي زيدان إلى أوروبا سنة 1912 رحلة استجمام واستمتاع بقدر

(1) محمد كرد علي - المعاصرون ص 144 - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

ما كانت رحلة علمية مبرمجة ، تجشم القيام بها في آخر العمر ليكتب وصفاً مفصلاً ودقيقاً عن أحوال المدنية الغربية مثلاً بكلٍّ من فرنسا وإنكلترا اللتين تجسدان خلاصة هذه المدنية في جانبيها المادي والمعنوي ، في الوقت الذي كانت تتطلع فيه عيون الشرقيين إلى الخروج من ربة التخلف ، والسير في ركاب الأم المتقدمة .

لقد أراد صاحب الرحلة - على حد قوله - أن يبيّن «ما يحسنُ أو يقع من عوامل تلك المدنية بالنظر إلى طبائعنا وعاداتنا ، وأخلاقنا»⁽¹⁾ فاختار أهم العناوين التي تقاس بها المدنيات ليقدم للقارئ العربي وصفاً أميناً لما يندرج تحتها من تفصيلات تعتمد على الإحصاء الدقيق المسند إلى السجلات الرسمية . فبدأ بالتعريف بنظام الحكم في كلا البلدين ، فهو في فرنسا جمهوري يُنتَخَبُ فيه الرئيس لمدة سبع سنوات بأغلبية الأصوات من قبل مجلس الأمة ومجلس الشيوخ ، وعليه تنفيذ قرارات وتشريعات هذين المجلسين . وتناط بهذين المجلسين السلطة التشريعية ، في حين تكون السلطة التنفيذية بيد مجلس الوزراء . أما في إنكلترا فنظام الحكم ملكي مقيد ، وإنكلترا من أعرق الأمم في الدستور . والحكم فيها يرجع إلى رأي الأمة التي ينوب عنها مجلس الأعيان والعموم .

إن نظام الحكم في البلدين لا مجال فيه للاستشارة بالسلطة ، والاستبداد بالشعب ، وحرمانه من المشاركة في الشأن العام كما هو سائد في معظم حكومات الشرق .

ثم يتطرق صاحب الرحلة إلى الأمور التي تهم القارئ العربي الذي يتطلع إلى تحدي مدنية الغرب في نهضته المعاصرة ، فيصف العمran ، والمدن ، ونظمها الدقيق ، ونظافة شوارعها وأسواقها ، ومتاحفها ، ومعابدها ، ومكتباتها ، وأثارها ، وحياة الناس فيها ، وما توافقوا عليه من عادات في اللباس ، والطعام والشراب . ولا يفوته أن يحصي الشروط في كل بلد ، والحالة الاقتصادية ، ثم الحالة العلمية ، وأسماء الجامعات والكلليات في كل بلد ، وأعداد طلبتها ، وتاريخ تأسيسها . ثم يصف حال المرأة في أوروبا عامة وفي فرنسا وإنكلترا خاصة ، وما أحرزته من تقدّم في نيل حقوقها

(1) انظر مستهل الرحلة لاحقاً .

في التعليم والعمل ، وحرية التصرف التي قد تصل إلى حد الشطط في بعض الأحيان .

إن الحديث عن الجوانب المادية في حضارة الغرب لم يشغل صاحب الرحلة عن الالتفات إلى الجوانب المعنوية ، وبخاصة الأخلاق المصاحبة لهذه الحضارة . فذكر طباع الناس في كل بلد ، وما يمتاز به كل شعب عن الآخر ، فالفرنسي نشيط ، دؤوب ينهض إلى عمله بهمة وحماسة يحب الجمال ، ويهيل إلى الاقتصاد في النفقات ويحب الترتيب والنظافة في المأكل والملبس ، ويحرص على أداء الواجب ، ويعرف قيمة الوقت ، ويصدق الوعد ، ويغتر بعظماء وطنه ونابغيه ، ويتعتز بحريته .

في حين أن الإنكليزي يمتاز بالثبات على الحقيقة ، والكبراء ، والأناقة ، ويُعنى بال التربية البدنية والعقلية ، ويحافظ على التقاليد ، ويمتاز بالصدق والوفاء ، والتدين ، يحب النظام ويؤدي الواجب

دون رقيب . إن الناظر إلى المزايا الأخلاقية لكلا الشعبين يرى أن وجوه الاتفاق فيها أكثر من وجوه الاختلاف ، كما أن هذا التقدم المادي يصاحب تقدم معنوي وأخلاقي يدفع بهذه الحضارة إلى الأمام ويتحول دون تدهورها وانحطاطها .

وما يلحظه القارئ لهذه الرحلة حرص كاتبها على الموازنة بين الشرق والغرب في الكثير من المسائل ، كالتعليم في فرنسا ، ونظيره في مصر ، والفرق بينهما من حيث المستوى والإنفاق .

كما وازن بين فن التمثيل في فرنسا ومثيله في مصر وبين وجوه الاختلاف ، فالفرنسيون يجمعون في فن التمثيل بين الجد والهزل ، وينتقدون السلبيات ، ويهتمون بالشؤون اليومية لحياة الناس .

وما يجدر بالذكر تلك الموازنة التي عقدها جرجي زيدان بين الأسس الأخلاقية التي تقوم عليها حضارة الغرب ، والأسس التي قامت عليها حضارة العرب في الماضي ، فمدنية العرب أساسها مناقبهم في صدر الإسلام ، كالأرياحية ، والنجدة ، وحسن الجوار ، والوفاء ، والحلم ، وكرم الخلق ونحوها . وهذا مما لا يلائم المدنية الحديثة التي تقتضي مبادلة الحقوق والواجبات ، لا حلم ولا عفو ، ولا أرياحية ولا نجدة ، وإنما ينال المرء من الرزق والمنصب على قدر سعيه ومواهبه بمقتضى القواعد الأخلاقية

والاقتصادية ، والاعتبارات السياسية .

إن هذا الرجل القادم من الشرق إلى أوروبا ، لم تبهره حضارة الغرب إلى الحد الذي يحجب عنه الرؤية الواضحة لمحاسنها وعيوبها ، كما أنه بدا متماسكاً إزاء التفاوت الكبير بين أحوال الغرب وأحوال الشرق ، فاقتصر عواطفه جانباً ، ليترك الأرقام والإحصاءات تتحدد عن واقع الغرب ، ومع ذلك فقد سمح لنفسه أن يتتحدث على نحو مباشر مبيناً ما ينبغيأخذه من المدنية الغربية ، وما يجب تركه فقال :

«في مدنية فرنسا وغيرها من مدنيات أوروبا حسنت كثيرة يجب علينا اقتباسها والاستفادة منها ، ولكن فيها سيئات يجب تجنبها والابتعاد عنها فالحسنات التي يحسن بنا اقتباسها هي :

* معرفة الواجب .

* الحافظة على الوقت ، وصدق الموعيد .

* تهذيب أخلاق العامة بالتربيـة الصـحيحة .

* تعليم المرأة وتشقيفها .

* ترقية التعليم والتـوسـع في الأـدـاب .

* العمل والجد .

أما ما يجب علينا تجنبـه من أدـران تلك المـدنـية أـهمـه :

* الإفراط في الحرية ، واستخدامها في غير موضعها .

* ما يخالف الحشمة الشرقـية ، على أن نأخذـ من العـلـمـ والتـرـبـيـةـ الـقـدـرـ الملـائـمـ لعادـاتـناـ .

* الفتـورـ فيـ الدـينـ ،ـ وـالـمجـاهـرـةـ فيـ الـكـفـرـ ؛ـ فإـنهـ منـ أـسـسـ الـخـرابـ .⁽¹⁾»

(4) ينظر في متن الرحلة : المرزة الفرنساوية وما بعدها .



في سويسرا

وكانت سويسرا هي المخطة الثالثة والأخيرة التي توقف فيها جرجي زيدان على عجل ، ولم يوقّعها حقّها من الوصف ، مما يرجّح أنها كانت محطة الاستجمام الوحيدة في رحلته ؛ لما تتمتّع به من طبيعة ساحرة تجذب السياح من أنحاء العالم كافة . لقد ذكرته جنيف من حيث مناظرها الطبيعية بالاستانة وبوسفورها بما على شاطئيه من التلال المكسوّة بالأشجار والقصور ، ولكنّه لم يجد مسوّغاً للإطالة في وصف هذه البلاد ؛ لأنّ رحلته رحلة عمل أراد منها وصف مدنية الغرب في أكثر غاذجها تقدماً ورقىأ .



بين فرنسا وإنكلترا

وفي حديثه عن نتائج حملة نابليون على مصر كان جرجي زيدان مبالغًا في تقدير إيجابياتها بحيث جعل لفرنسا فضلاً على الشرق كله من أوجه كثيرة ظهرت آثاره في أخلاق أهلها وأدابهم . فهذه الحملة نقلت معها بذور المدنية الحديثة ، وذلك من خلال الحملة العلمية المصاحبة لمدّافع نابليون وجيوشه البحريّة ، والتي جمعت نخبة من خيرة علماء فرنسا آنذاك .

وحينما ارتدّ الفاتح على أعقابه ، وانسحبت فلول الجيش الفرنسي من مصر ، ظلت تلك البذور كامنة إلى أن تعهدّها رجال من الشرق بالعناية والرعاية ؛ فآتت أكلها ، وكانت منطلقاً للنهضة العربية الحديثة في مصر والشام . كما سعى كل من الأتراك والفرس إلى الإفاده من مدنية فرنسا لما همّوا بنهضتهم الأخيرة .

ومما لا شكّ فيه أن حملة نابليون أثّاراً إيجابية نجمت عن ذلك الاحتياك القسري بين الغرب والشرق من جانب نابليون الذي كان يحلم بالسيطرة على العالم ، وإخضاعه لصوبجانه بالقوة القاهرة ، وهذه الآثار إنما هي من باب تأثير الغالب في

المغلوب . فكيف يمكننا أن نسلم بتسمية كل ذلك فضلاً؟! ولو عاصر جرجي زيدان ما فعلته فرنسا بالشرق فيما بعد لاعاد النظر في هذه التسمية .

وحيثما يذكر جرجي زيدان الاستعمار الإنكليزي ، لا يبدي إزاءه ذلك القدر من التعاطف الذي أبداه في حديثه عن الفرنسيين ، بل تؤخّى الموضوعية في الوصف ؛ فالإنكليزي تهمه الفائدة الحقيقة من الاستعمار ، وهو لا يعبأ بزخرف السيادة وأبهة السلطة ، وذلك عائد في رأي الكاتب إلى الخلق الإنكليزي الذي يُعوّل على الحقيقة مع الثبات .

والإنكليز يمتازون بالأناة والصبر لتحقيق مطامعهم الاستعمارية ؛ لهذا لا نراهم يستعجلون بسط الحماية على مستعمراتهم ، أو إعلان السيادة عليها ، فيسمحون لها بالاستقلال الإداري شريطة المحافظة على مصالحهم المادية .

ولا يسعنا أخيراً إلا أن نقول : إن صاحب الهلال قدّم لنا صورة دقيقة واصحة عن أحوال الغرب ، كما بين مدى تقدّمه على الصعيدين المادي والمعنوي ، وسجل مآخذاته على بعض الجوانب الأخلاقية دون مواربة ، وعقد الموازنات بين الغرب والشرق ، وهو في ذلك جميـعـه رائد مؤمن ، والرائد كما تقول العرب لا يكذب أهله ؛ إذ إنه لم يلجا إلى المبالغة والتهويل ، أو الانتقاد والتقليل ، بل لزم الموضوعية والاعتدال ، على الرغم مما لاحظناه من تقويم إيجابي لنتائج الحملة الفرنسية على مصر ، وتنويه بفضل الفرنسيين على الشرق ، ذلك لأن مثل هذه الأمور سوف تظل قابلة للجدل ، واختلاف الآراء .

وختاماً فإننا أردنا لهذه المقدمة أن تكون مدخلاً للاقتراب من الكاتب والكتاب ، ودعوة للقارئ الكريم إلى النظر في هذه الرحلة ، والاطلاع على الدور الريادي الشاق الذي نهض به الأسلاف خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، والعمل على خدمة هذه الأمة ، والأخذ بيدها للسير في طريق الرقي والتقدم .

قاسم وهب

مسَارُ الرَّحْلَةِ

1- فرنسا :

- مرسيليا
- ليون
- باريس

2- انكلترا :

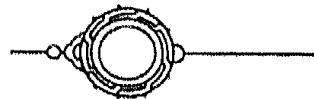
- لندن
- كامبردج
- منستر
- أوكسفورد

3- سويسرا :

- جنيف
- لوزان
- إيفيان

دُنْصُ الْرَّحْلَة

القسم الأول: فرنسا



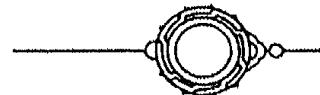
قضينا صيف هذا العام في أوروبا بين فرنسا وإنكلترا وسويسرا وتنقلنا في أهم مدنها فزرتنا مرسيليا وليون وباريس ولندن وكامبردج ومنستر وأكسفورد وجنيف ولوزان وافيان . ودرستنا أحوالها وتفقدنا متاحفها ومكتابتها وأثارها . وتوخينا النظر على الخصوص في ما يهم قراء العربية من أحوال تلك المدينة التي أخذنا في تقلیدها منذ قرن كامل و نحن نتخبط في اختيار ما يلائم أحوالنا منها . وسننشر في ما يلي خلاصة ما بلغ إليه الإمكان من ذلك الدرس .

ونقتصر من ذلك على ما يهم القارئ الشرقي من حيث حاجة إلى تحدي مدئية أولئك القوم في نهضته هذه . ونبين ما يحسن أو يقبح من عوامل تلك المدينة بالنظر إلى طبائعنا وعاداتنا وأخلاقنا .

وسنُغفل سياق الرحلة فلا نذكر رحيلنا أو نزولنا وما لاقيناه أو كابدناه في أثناء ذلك على ما جرت به عادة أهل الرحلة إذ ليس غرضنا أن يكون ما نكتبه دليلاً للراحلين في السفر والنزول ، ومعرفة الطرق والمسافات والأجر . وإنما نريد أن نمثل

للقارئ ما طبع في ذهنا أثناء هذه الرحلة بعد إعمال الفكر في أحوال تلك الأم . ولذلك نقسم الكلام إلى ثلاثة أقسام باعتبار المالك التي زرناها على ترتيب تلك الزيارة فنبدأ بفرنسا فإنكلترا فسويسرا .

نظام حكمتها



تقلب نظام الحكومة الفرنساوية على أوجهٍ شتى واستقر في 4 سبتمبر سنة 1870 على الجمهورية . وثبت ذلك في 16 يوليو سنة 1875 بقانون دستوري تعديل بعض التعديل بعد ذلك . وهو يقضي أن ترجع قوة التشريع إلى مجلس الأمة ، ومجلس الشيوخ ، وقوة التنفيذ إلى رئيس الجمهورية والوزارة .

وهم ينتخبون رئيس الجمهورية كل سبع سنوات بأغلبية الأصوات ، ولا منتخبه يجتمع المجلسان المذكوران في الجمعية العمومية . وعليه تنفيذ ما يقرّنه أو يشرعه . وهو يشكل الوزارة من المجلسين ويجوز أن يكون بعض الوزراء من غير أعضائها . وهو يعين الموظفين الملكيين⁽¹⁾ والعسكريين . ويعقد المعاهدات مع الدول الأخرى . لكنه لا يقدر أن يعقد معاہدة تتعلق بمساحة أرض فرنسا أو مستعمراتها إلا بصادقة القوة التشريعية⁽²⁾ . ولا يجوز له أن يعلن حرباً إلا بموافقة المجلسين . وكل عمل من أعمال الوزارة يجب أن يمضيه رئيس الجمهورية مع أحد الوزراء . ويستطيع هذا الرئيس بالاتفاق مع مجلس الشيوخ أن يحل مجلس النواب .

والوزارات والنظارات 13 نظارة هي : الداخلية ، والمالية ، والأشغال العمومية ، والحربية ، والبحرية ، والحقانية ، والمستعمرات ، والمعارف العمومية ، والخارجية ، والتجارة ، والزراعة ، والعمال ، والأديان .

وي منتخب النواب لأربع سنوات بالتصويت العام . وكل فرنساوي من غير الجندي بلغ الحادية والعشرين من عمره له حق التصويت في الانتخاب بشرط أن يثبت إقامته

(1) الموظفون الملكيون : موظفو الحكومة الرسميون .

(2) يقصد السلطة التشريعية .

ستة أشهر في البلد الذي يريد أن يصوت لنائبه . أما النائب فيجب أن يكون سنه 25 سنة على الأقل . وعدد النواب الآن 584 نائباً ، وعدد المُنتَخَبِين بين عشرة ملايين وسبعة ملايين . ومجلس الشيوخ مؤلف من 300 عضو يُنتَخَبون لتسعة سنوات من أعيان الفرساناويين ولا يكون سن أحدهم أقل من 40 سنة . يتقادع ثلاثهم كل ثلاثة سنين ، ويُنتَخَب غيرهم . وانتخاب الشيوخ منوط بلجنة مؤلفة من مندوبي عن مجالس البلدية في الولايات على نسبة عدد سكانها ، ومن النواب . فينتخبن 522 شيخاً ينوبون عن الولايات يُضاف إليهم 75 شيخاً يُنتَخَبون لطول الحياة بإجماع المجلسين . ولا يجوز انتخاب أحد من أعضاء الأسرة الملكية «المخلوعة» في أحد المجلسين .

الراتب واحد للنواب والشيوخ ، فيستولى النائب أو الشيخ على 15000 فرنك في السنة «نحو ٤٠٠ جنيه» وأما رئيس المجلس فيأخذ فوق ذلك 72000 فرنك «نحو 2840 جنيهاً» للنفقات . ويسافر أعضاء المجلسين في السكك الحديدية بنفقات زهيدة . وراتب رئيس الجمهورية ٦٠٠٠٠٠ فرنك أو نحو 24000 جنيه . ونحو هذا المبلغ للنفقات الرسمية .

وعند هم مجلس لتشوري إنشاء نابليون الأول ولا يزال باقياً يرأسه ناظر الحقانية ^(١) وهو مؤلف من مستشارين قضائيين وعلماء في القضاء للنظر في ما تعرضه عليهم الحكومة وأكثره يتعلق بالإدارة ونحوها عمرانها

فرنسا قدوة الممالك المتقدمة في روح المدنية الحديثة وأكثرهن احتكاراً بالشرق الأدنى . وكنا إلى عهد غير بعيد لا نعرف سواها قدوة لنا في أحوالنا الاجتماعية والأدبية والسياسية والقضائية ولا نزال أكثر معرفة بها مما بسوها مساحة مملكة فرنسا ٥٤٠٧٢ ميلاً مربعاً وعدد سكانها ٣٩٠٠٠،٦٧٣ نفس ^(٢) . منهم نحو ٣٠٠٠٠٠٠ نفس من أهل الفلاح ، والباقيون من سكان المدن يتعاطون

(١) هو من نسميه اليوم : وزير العدل .

(٢) جميع الإحصاءات التي ترد في هذا الكتاب مأخوذ عن ذلك الوقت فهي صحيحة لسنة ١٩١٢

الصناعات والمهن والوظائف والمصالح . وفيها ستون مدينة سكان كلّ منها فوق 35000 نفس أكبرها باريس عدد سكانها 2846986 نفساً ، فمرسيليا 517497 ، وتليها ليون 35516 نفساً . ثم تأتي بوردو ، وليل ، وتولوز ، وغيرها إلى روان وسكانها 472114 نفساً .

وفرنسا من أكبر المالك ثروة يعني أهل فرنسا فإنّهم يُعدّون في مقدمة الأمم من حيث الثروةُ الخصوصيةُ . وانختلف الباحثون في مجموع تلك الثروات فوجد المسيودي فوفيل الباحث الاجتماعي أن فرنسا تقدر قيمتها على هذه الصورة :

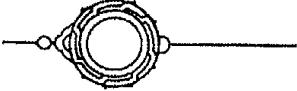
جنيه	
3000000000	أرض زراعية .
2000000000	أبنية .
2000000000	نقود .
2800000000	ضمانات وتأمينات .
400000000	أدوات زراعية ومواشن ونحوها .
680000000	ممتلكات أخرى .
9080000000	

وقدّرها غيرهُ بأكثرَ من ذلك ، فيبلغ مجموعها في تقدير جويو 9520 مليون جنيه . ويبلغ دخل فرنسا السنوي في تقدير ليروا بوليوا 1000000000 1000000000 جنيه ثلاثة أخماسه من نتاج العمل الشخصي .

وفي كل حال فإن الفرنسيين مشهورون بالاقتصاد والاحتفاظ بالمال . والفقير المدقع عندهم أقلّ كثيراً مما في سائر المالك الكبرى .

وفرنسا كثيرة المعامل واسعة التجارة ولها في الصناعة الدقيقة القدْحُ المعلى ولبعضها شهرة طائرة في الجمال وسلامة الذوق وهي قدوة الأمم المتدينة في الأزياء من الملابس وغيرها . وعاصمتها باريس مرجع أمّ الأرض في كلّ ذلك مما هو مشهور لا يحتاج إلى بيان . وسنعود إليه عند الكلام على الأحوال الاجتماعية .

أما مالية الحكومة الفرنساوية فيبلغ دخلها في السنة الماضية 170767054 170767054 جنيهاً منها 51 مليون جنيه دفعت عن الدين و35 مليوناً للحربية و16 مليوناً للبحرية



حالتها الاقتصادية

فرنسا أرض زراعية خصبة تزيد مساحة ما يزرع منها على 130000,000 قصبة . وأكثر حاصيلاتها الحنطة والكرم والعلف والبطاطس . وللخمور غلة كبرى بلغت قيمتها سنة 1910 نحو 38000,000 جنيه . وفيها من الماشية والحيوانات الأهلية . كما يأتي :

	عدد
خيول	3133650
بغال	19400
حمير	363000
ماشية من البقر ونحوها	14234000
من الغنم	17234000
خنازير	7202000
ماعز	1424000

أما الصناعة فالحرير له سوق رائجة عندهم وقد بلغ عدد المشغلين في تربية دود القز سنة 1908 نحو 123800 عامل . ومقدار البذر الذي استولدوه 187000 أوقية وبلغ محصولها 8409299 كيلو غراماً من الفيلجات .⁽¹⁾

وفي فرنسا كثير من المناجم المعدنية تناهز 600 منجم فيها 230000 عامل وفيهم النساء والأولاد . وبلغت غلة هذه المناجم نحو 26656000 جنيه أكثرها من الفحم والحديد .

وهي كثيرة المعامل على اختلاف أنواعها أهمها معامل نسج القطن والصوف

(1) جمع فيلجة بكسر الفاء وسكون الياء وفتح اللام وهي شرائق الحرير التي تنسجها دودة القز ، ومنها

يؤخذ الحرير الطبيعي .

والحرير ، ومصانع الأدوات الحديدية ، وأدوات البناء . وهكذا أهم المعامل . وعدد عمالها :

عدد العمال	
معامل لنسج القطن	167200
= الصوف	171000
= الحرير	123000
لصنع الخزف	166000
للمصنوعات الحديدية	570000
عملة أدوات البناء	550000
معامل الدنتيلا وتوابعها	156000
معامل الملبوسات على أنواعها	938000
للمصنوعات الخشبية	704000
للمصنوعات الجلدية	334000

ومن أهم حاصيلات فرنسا السكر فإن له 251 معيناً وتبلغ غلتته في العام نحو مليون طن . وكذلك الكحول فإن غلتته تزيد على 45 مليون غالون . غير غلة المصائد ونحوها .

أما التجارة فلفرنسا شأن كبير وقد بلغت قيمة صادراتها لسنة 1910 نحو 220 مليون جنية ووارداتها 270 مليوناً .

حالتها العلمية

إنّ أدب اللغة الفرنساوية أشهر من أن تُعرَف . ولا يفي بوصفها إلاّ المجلدات لكترة من نبغ فيها من العلماء والأدباء والشعراء . وبكثرة ما فيها من الصحف والمجلات على اختلاف موضوعاتها ، وقد أشرنا إلى ذلك مراراً في الهلال . وإنما نريد هنا حالها من حيث التعليم والمدارس .

إن للحكومة الفرنساوية عناية كبرى في التعليم تتفق في سبيل ذلك الأموال الطائلة على يد نظارة المعارف . والمدارس عندها طبقات : مكاتب «كتاتيب» ومدارس ابتدائية وثانوية وعالية .

فنكتفي بفضلكة في التعليم العالي الذي يُلقى في الجامعات الكبرى وفي الكليات الخاصة ونحوها : وهو حرّ مطلق بناء على قرارات رسمية صدر آخرها سنة 1897 والجامعة عندهم تحتها كليات أو مدارس تختلف أسماؤها باختلاف مواضيعها هاك أشهرها :

- مدارس الحقوق : هي 13 مدرسة في باريس ، واكس ، وبوردو ، وكاين وديجون ، وغريينوبل ، وليل ، وليون ، ومونبلييه ، ونانسي ، وبواتييه ، ورين وطولوز .

- مدارس الطب : هي سبع مدارس في باريس ، ومونبلييه ، وبوردو ، وليل ، ولبون ، وطولوز ، ونانسي .

- كليات العلوم : هي 15 كلية في باريس ويزانسون ، وبوردو ، وكاين وكليرمون ، وديجون ، وغريينوبل ، وليل ، وليون ، ومرسيليا ، ومونبلييه ، ونانسي ، وبواتييه ، ورين ، وطولوز .

- كليات الآداب : هي 15 أيضاً في المدن التي تقدم ذكرها غير المدارس التجهيزية أو التي يراد بها التبحر في بعض العلوم الخاصة . أما عدد المتخريجين في هذه المدارس فهاك أجملهم حسب المواضيع لسنة 1910 :

عدد التلامذة

في الحقوق	16915
الطب	8029
العلوم	6287
الآداب	6373
الصيدلة وغيرها	3450
	41044

وهذا العدد من طلاب العلوم العالية في الكليات الأميرية منه 35800 طالب من الفرنسيين و5244 من الأجانب . بينهم جمِيعاً 3830 من النساء ثلثاهن من

الفرنساويين .

هناك مدارس عاليّة غير أميرية⁽¹⁾ : منها في باريس الكلية الكاثوليكية لتعليم الحقوق والأداب العالية . ومدرسة التعليم الحرّ العالى . والكلية الحرة لتعليم العلوم السياسية . وفي المجرس مدارس للأهوت ، والحقوق ، والعلوم ، والأداب ، والزراعة . ومثل ذلك في ليون ، وليل ، ومرسيليا ، وطولوز . والمدارس الأميرية تمنح تلامذتها رتبة علمية هي «1» البكالوريا العلمية «2» شهادة الحقوق «اللسانس» «3» الدكتورية . وتحل محل رتبة أستاذ للتعليم الثانوي والعالي .

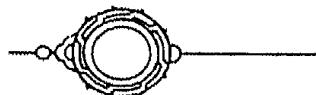
وفي فرنسا غير ما تقدم من المدارس العالية مدارس كبرى تابعة لناظارة المعارف أشهرها :

- كلية فرنسا College de France أسسها فرنسيس الأول سنة 1535 وهي أرقى مدارس فرنسا على الإطلاق يُعَلِّم فيها 50 فرعاً من أعلى طبقات العلم في الأداب ، واللغات ، وعلم الآثار ، والرياضيات ، والطبيعيات ، والعقليات ، والاجتماعيات ، والسياسة ، والاقتصاد وغيرها .
- معرض التاريخ الطبيعي : للتتفقّه في هذا العلم .
- المدرسة العلمية للعلوم العالية : في التاريخ ، والفيزيولوجيا ، والرياضيات ، والعلوم الكيماوية والبصيكلوجية . والعلوم الطبيعية والدينية الراقية . ومقرّ هذه المدرسة في السوربون بباريس وعلومها 18 فرعاً .
- مدرسة المعلمين العليا : يتخرّج فيها المعلمون للتعليم في المدارس الثانوية . واتبعت خطّة السوربون بدون أن يكون لها أساتذة معينون .
- مدرسة السجلات : لتعليم الخطوط القديمة والأثار ثمانية فروع .
- مدرسة اللغات الشرقية الحية : بها 16 فرعاً من فروع اللغات الحية الشرقية .
- مدرسة اللوفر : تعلم فن الآثار .
- مدرسة الفنون الجميلة .
- مدرسة الرصد بباريس .

(1) غير حكومية

غير المدارس الفرنساوية خارج فرنسا كمدرسة الحقوق في القاهرة ، ومدرسة الطب في بيروت . فإن مثلها في أثينا وروميا والهند الصينية وفي مراكش . ولفرنسا خارج باريس ثمانية مراصد .

وغير التعليم الصناعي أو الفني ، فإنه واسع لكنه خارج عن دائرة نظارة المعارف . أشهر مدارسه : مدرسة الصنائع والفنون في باريس «كونسيرفاتوار» تلقي عشرين علماءً ليلياً في العلم ، والاقتصاد السياسي . ومدارس أخرى للتجارة والصناعة تابعة لنظارة الزراعة ، وغيرها تابع لنظارة الحربة أو المستعمرات أو غيرها مما يطول شرحه . وكلها في باريس ومثلها أو أقل منها في خارجها مثل اكس ، ونجرس ، وشالون ، وكليني ، وليل وغيرها . وغير مدارس الموسيقى والخطابة ومدارس لتعليم الخدمة على الموائد ، وتربية الأطفال وغير ذلك .



التعليم بمصر

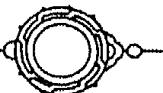
والاطلاع على أسماء هذه المدارس يدل وحده على الفرق العظيم بين التعليم عندنا وفي تلك المملكة⁽¹⁾ الراقية ، فقد ذكرنا عشرات من المدارس لا وجود لها عندنا ، ولم نذكر غير المدارس العالية . وقد أغفلنا المدارس الابتدائية والثانوية التي عندنا مثلها . على أن مدارستنا هذه أححط كثيراً من أمثالها عند الفرنسيين ، والابتدائية أقل كثيراً من المدارس الابتدائية عندهم ، والمدارس الثانوية كذلك . وحامل البكالوريوس المصرية أقل معرفة من حامل البكالوريوس الفرنسي . فالتعليم عندنا ضعيف جداً من كل وجه وسنفرد فصلاً خاصاً في هذا الموضوع . وإنما يكفي في هذا المقام أن نبيّن تقاعده حكومتنا أو أغنيانها عن التعليم . ولا يُحتاج علينا بصغر مصر بالنسبة إلى فرنسا فإن سكان مصر يناهزون ثلث سكان فرنسا ، ومع ذلك فالحكومة لا تنفق على التعليم عشر ما تنفقه فرنسا . إن ميزانية المعارف الفرنساوية 11557000 جنية ، فكم هي ميزانية حكومة مصر للمعارف ؟ إنها نحو نصف مليون .

(1) يلاحظ أن جرجي زيدان يستعمل كلمة مملكة بمعنى الدولة .

وقد يحتاجون بتقصير المالية المصرية عن المالية الفرنساوية لأن المالية الفرنساوية 170 مليون جنيه ، والمصرية أقل من عشر هذا المبلغ فلا عجب إذا دفعت للمعارف عشر ما تدفعه فرنسا . ولكن فرنسا تدفع من ماليتها أموالاً لا تدفع مصر شيئاً منها فالفرنساويون ينفقون على الحرية نحو ربع ميزانيتهم . أما مصر فربع ميزانيتها يكفي لنفقات كل نظاراتها ، وفرنسا تدفع نحو ثلث دخلها لوفاء الدين وأما مصر فتدفع خمس دخلها فقط لهذا الغرض ومع ذلك فهي تنفق على المعارف 20/1 ، بما تنفقه فرنسا .

وفي فرنسا جمعيات علمية «أكاديميات» عديدة لكلّ فرع من فروع العلم أهمها الأكاديمية العلمية أو أكاديمية العلوم . وأكاديمية العلوم والنقوش . وأكاديمية الفنون الجميلة . وأكاديمية العلوم الأدبية والسياسية . وأكاديمية الطب وغيرها . وكل أكاديمية مؤلفة من 40 عضواً أو أكثر ولكل منهم اختصاص بفرع من فروع العلم التي تبحث فيها . غير ما هنالك من المتاحف العلمية والصناعية والمدارس على اختلاف أحوالها . وغير الجمعيات المؤلفة لتنشيط العلم والأدب أو لحفظ حقوق المؤلفين والمترجمين ، ومراقبة سير العلوم من حيث الصحافة ، وغيرها ، وغير المعارض والمتاحف فإنها من ظواهر الرقيّ العلميّ وسنأتي عليها .

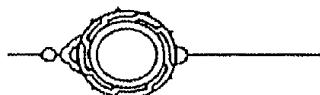
الراسخ والتتمثيل



ليس المراد أن نصفَ المراسخ التمثيلية فإن لدينا منها أمثلة حسنة في مصر والإسكندرية وإن كانت أقلّ مما في باريس فإنها تشبهها ، حتى كثيراً ما تعرض فيها روايات فرنساوية يمثلها أجواق من باريس . لكننا رأينا على مراسخ التمثيل في باريس وغيرها من المدائن الكبرى في فرنسا وسويسرا ضرباً من التمثيل الانتقادي يسمونه في اصطلاحهم revue ويريدون به انتقاد العادات والأخلاق والأدب على المراسخ في شكل بين الجدّ والهزل يلذّ للمشاهدين لأنّه يتعلّق على الخصوص بالأمور الجارية التي يتحدث بها الناس . وكثيراً ما ينتقدون الكتاب ، أو رجال السياسة على كتاب الفوه ، أو رأي رأوه . وقد شهدنا تمثيلاً من هذا النوع في باريس انتقدوا فيه

حرية المرأة الباريسية على أسلوب مؤثر ، فمثّلوا عروسًا عُقد عليها لرجل ، وخرجت معه في الشارع فأصبحت كلّما رأت رجلاً تعرفه أو رأت أن تحبه ضمّته وقبلته ، وزوجها يرى ذلك . فإذا اعترضها احتجّت عليه بحرية المرأة بقولها «إن هذا العصر عصر حرية» . وانتقدوا عادة البراز انتقاداً يحقّرها في عيون محبّيها ، وانتقدوا مقالات كتبت في الأحوال الجارية بباريس . وشهدنا في تمثيل آخر في جنيف انتقاد المعاهدات الدوليّة والمجاملات السياسيّة ، ومثلوا في جملتها حرب الدولة العثمانيّة والإيطاليّان وغير ذلك . فهذا الأسلوب من التمثيل لا مثيل له عندنا لكنه مفيد ولذيد .

مظاهر حضارتها



أرقى مداهن فرنسا بلا خلاف باريس ومع ذلك فالذاهب إليها من مصر لا يجد فيها ما يدهشه من حيث ظواهر المدنية الحديثة كالشوارع الواسعة ، والأبنية الفخيمة والأنوار الكهربائية ، وازدحام الأقدام والبذخ في الألبسة والتفنن في الأزياء لأن في مصر أمثلة من ذلك لكنها في باريس أفحى وأجمل . ولا غرو فإن حضارة مصر الحديثة صورة مصغرة من حضارة باريس . والمرحوم إسماعيل باشا⁽¹⁾ صاحب الفضل الأكبر في تنظيم شوارع القاهرة وإنشاء الأبنية الفخيمة فيها ، إنما كان يفعل ذلك تقليداً لباريس ، وكان مفتوناً بالفرنساويين ومدنيتهم . وظل ذلك مستمراً بعده إلى عهد قريب .

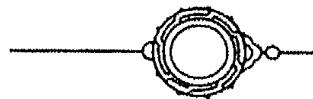
فلا ينبغي لنا أن نطيل الكلام في وصف شوارع باريس الكبرى وسعتها وما يحفل بها من المخازن ، وما يعرض في تلك المخازن من السلع الثمينة ، أو ما يتلاّل في الليل من الأنوار الكهربائية على اختلاف ألوانها ، ولا تعداد ضروب المركبات في العربات .

(1) إسماعيل باشا (1830 - 1895) حاكم مصر من سنة 1863 - 1895م ابن إبراهيم باشا ، منحه السلطان عبد العزيز لقب خديوي .

دشن قناة السويس سنة 1869م . اشتهر بمشاريعه العمرانية والثقافية .

فالأتوموبيل ، فالترامواي ، فالأتوبيس ، فالامنيبيس فالمتروبوليتان وغيره - فإن هذه لها أمثلة بين ظهرانيتنا ولكنها عندهم أكثر عددا والركاب أكثر ازدحاماً . وإنما تمتاز عمّا في مصر وغيرها من مدن الشرق ، أن السائق لا مطعم له في الركاب ولا سبيل إلى طلب الزيادة عن حقه . لأن المركبات الكبرى العمومية كالترامواي وغيره لها رسوم معينة كما في مصر . والمركبات الصغرى كالعربات والأوتوموبيل أصبحت كلها مقيدة بالعداد «تكسيمتر» ، وهذه الآلة تعين الأجرة الالزمة وتغنى الناس عن النزاع .

المركبات العامة

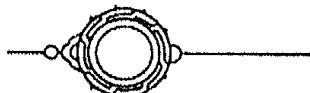


وقد استلفت نظرنا على الخصوص أن باريس مع تزاحم الأقدام فيها لا يتنازع الركاب في المسابقة إلى الترمواي أو الأونبليس ، ولا يسمح لأحد بالوقوف بين الركاب إذا لم يكن له مجلس فارغ . ولا يجسر أحد على الركوب في غير دوره . لا يختلفون في ذلك ولا سبيل إلى الاختلاف ؛ لأن عند كل موقف من مواقف هذه المركبات لوحًا معلقاً بعمود منصوب على الرصيف وعليه دفتر صغير الحجم أوراقه منمرة نمراً متسلسلة فالذي يسبق إلى الموقف يقتطع النمرة الأولى ، ومن يأتي بعده يتناول النمرة التالية وهكذا . وقد يجتمع في الموقف عشرات من الناس وربما جاء القطار وليس فيه مكان إلا خمسة أو ستة فلا يؤذن بالدخول إلاً من كانت عندهم النمرة الأولى بقطع النظر عن أحوالهم من الغنى أو الفقر أو الواجهة .

ومثل هذه العادة في لندن عند تكاير الركاب ساعة الظهر لركوب الترامواي . فقد جعلوا في المحطات التي يكثر التزاحم عندها موقفاً مستطيناً لا يدخله الناس إلا أزواجاً . أوله عند محطة القطر وأخره في الشارع لا حد له . فالواصل الأول يقف قرب المحطة تماماً والذي يأتي بعده يقف وراءه وهكذا أزواجاً . وقد يتتألف من الواقفين سلسلة طولها عشرات من الأمتار ، وكل منهم ينتظر دوره بلا نزاع ولا خام . ويفعلون نحو ذلك في كل ما تزاحم فيه الأقدام كالدخول إلى المراسع أو قطع تذاكرها . فالسابق يقف عند شباك التذاكر والذي يأتي بعده يقف وراءه وهكذا وقد تتتألف من الواقفين سلسلة طويلة رأينا واحدة منها عند مرسح هنستير . والمرسح في بناء كبير

قائم بنفسه رأينا المنتظرین وقوفاً في سلسة طويلة وقد يحيطون بالبناء من أربع جهاته أولئم عن يمين شباك التذاكر وأخرهم عن يساره .

ومما يحسن استطراده ويهمنا أمره في هذا المقام أن قومساري الترامواي أو غيره من المركبات العمومية لا يحتاجون إلى مفتشين يتفقدون سيرهم خوفاً من السرقة كما هو حال الترامواي عندنا . وقد يكون للترامواي الفرنسي أو الإنكليزي مفتشون ولكنهم لا يتفقدون المركبات إلا نادراً وقد ركبنا في تلك المركبات عشرات من المرات لم نشاهد فيها مفتشاً ولا لحظنا من القومساري مطمعاً في التذاكر كاستخدام التذكرة مررتين لراكبين أو قبض الجُعل^(١) بدون أن يعطي التذكرة ولا رقيب عليهم من الشركة . ولعل السبب في ذلك أن الشركة تدفع لهم الرواتب الكافية لعاشهم فلا يرون حاجة إلى السرقة . ولو أرادوا السرقة لا يجدون من الركاب من توافقهم عليها كما يقع كثيرون بيننا حتى أن بعض ركاب الترامواي بهصر يحرض القومساري على سرقة الشركة بقوله : «بلاش تذكرة» فيعطيه القرش ولا يأخذ التذكرة . وذلك ناتج عن ضعف في الأخلاق لا نراه عند أولئك .



الإعلان

والتزاحم في العواصم الكبرى يسهل رواج السلع على طلاب الرزق . وقد يستغرب قومنا بهصر ، أو الشام كيف ينفق في أسواق باريس ، أو لندن أشياء لا فائدة لها أولاً تستحق الرواج . وإنما السبب في ذلك كثرة الناس لأن من يعرض سلعة في الشارع لا يمضي عليه ساعة حتى يمرّ به مئات من الناس فلا يخلو أن يكون فيهم من يقع اختياره على تلك السلعة ؛ فيشتريها ولو على سبيل التجربة ، وإنما يطلب من صاحب السلع أن يستلتفت الأذهان إلى بضاعته وهذا هو السبب في اهتمام الإفرنج بالإعلان حتى أن أحدهم إذا هم بإنشاء تجارة أو صناعة أعد رأس مال بالإعلان قبل رأس مال البضاعة . وقد تفتنوا في ذلك تفتناً عجيباً فهم يعلنون في الجرائد وعلى

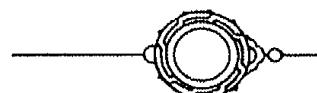
(١) الجُعل بفتح الجيم وضمها وسكون العين : الأجر .

أغلفة الكتب وعلى جدران المنازل وأسطحتها وعلى الموائد وأغلفة المساوئ وفي مركبات الترامواي والأونبييس والقطار الحديدية وفي الحقول - حتى الحقول ، فإنك وأنت راكب في القطر من مدينة إلى أخرى يقع بصرك على عشرات أو مئات من ألواح قائمة على عمود مغروسة في الحقول ووجهها نحو الركاب فتقراً عليها أسماء الحالات ، أو المعامل ، أو المنتجات ، ولا سيما المشروبات والحلويات وأمثالها ، فإن أصحابها من أكثر الناس إنفاقاً على الإعلان . وإنما يفوز منها من يستلتفت الأذهان إلى صناعته فضلاً عن إتقانها . ويقال أن أكثر التجار إنفاقاً في فرنسا أصحاب معمل «شوكولات مينيه» وحيثما توجهت في شوارع المدن أو خطوط السكك الحديدية حتى المتاحف والمعارض ونحوها فإنك تجد عليها اسم هذه الشوكولاتة ، وأصحابها ينفقون مليوني فرنك سنوياً على الإعلان وأرادوا مرةً أن يقتضدوا فقللت مبيعاتهم فعادوا إلى الإنفاق .

ومن أغرب طرق الإعلان عندهم أنهم يكتبون اسم البضاعة على الحقول نفسها أو على الجبال بأغراض من الأعشاب بلون خاص يغرسونها على الرسم المطلوب كتابته فتنبت على ذلك الشكل . وقد تكون بعيدة عن الطرق والمنازل عدة كيلومترات فيراها الناس ويقرؤونها واضحة . ومن أساليب الإعلان أن يذكر اسم السلعة أو المشروب أو غيره على المراسح أو غيره في أثناء التمثيل على سبيل الاستشهاد أو الانتقاد أو غير ذلك ، ويدفع صاحب الإعلان على ذلك ثمناً .

ومن أساليب الإعلان أن يعرض التاجر بضاعته ويكتب على كلّ صنف ثمنه . فهذا يسهل على الشاري الحكم في الابتياع أو عدمه . لكن أصحاب البضائع التي فيها درجات متفاوتة بأثمان متفاوتة يعلنون أنهم يبيعون الأداة الفلانية بالشمن الفلاني ويذكرون أرخص سعر عندهم فيتوهم الشاري إنه ثمن الصنف الجيد فيدخل للسؤال فيطلعونه على الأسعار ولا بد من أن يشتري .

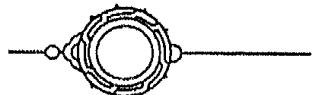
الأزياء



ولا خلاف في أن باريس أسبق مدن العالم إلى جمال الصناعة ولطافة

المصنوعات ، وهي التي ترسم للعالم الأزياء التي يجب اتباعها وقد يكون لسواهم أزياء لكنها السابقة المتغلبة . ولا هنالك مقدرة كبرى على توليد الأزياء في الملابس وغيرها . وهناك طائفة من أهل الذوق الصناعي إنما يشتغلون بوضع الرسوم للأزياء الجديدة يستعينون على ذلك بما في المتاحف الصناعية من الرسوم أو المنسوجات القديمة فيركبون منها زياً جديداً يبالغون في تنقيحه وتدقيقه حتى يبلغ حده . ثم يعرض على أصحاب المعامل للنسج على منواله ، أو أصحاب المتاجر ليروّجوه .

وللفرنساويين مهارة خاصة في الزخرفة وإتقان المظاهر بغير التفات إلى متانة ما يصنعونه وطول بقائه بخلاف الإنكليز فإنهم إنما يهتمون بمتانة ما يصنعونه ولا يهتمّون ظاهره ، وهذا تابع لما اتصف به هذان الشعبان من الأخلاق كما سندكره في بابه . فالبضاعة الباريسية إنما يرحب الناس في ظواهرها أكثر مما في متانتها . واعتبر ذلك في أكثر معاملاتهم فإن ما تبتاعه عشرة فرنكات من أسواق باريس ليس فيه من المادة الأصلية إلا ما يساوي فرنكين أو أقل والباقي ثمن ما ينفق في سبيل ترويجه من المظاهرات كإتقان المخازن ، والإكثار من الخدم ، والتنوير الكهربائي والإعلان وغير ذلك .



البور بوار «البخشيش»

ومن غرائب هذه الحضارة في فرنسا «البخشيش» يعني ما يعطى للخدم مكافأة على خدمة خاصة ، وهو عندنا لا يعطى إلا إذا كانت الخدمة خارجة عن واجبات الخادم التي يُنقد عليها الأجرة .

وأما عندهم فالبخشيش فرض واجب لا مناص منه ، ويسمونه في اصطلاحهم بور بوار pourbaire أي لأجل الشرب كأنه يطلب أن تعطيه فلساً يبتاع به قدحاً من البيرة أو الخمر . والبور بوار يعطى على الشخصوص لخدمة القهوة والأندية والمطاعم والفنادق ، وساقة المركبات ، وهو يقدر بنحو عشر المبلغ المدفوع ثمناً حقيقياً . فإذا دخلت مطعماً مثلاً ، ودفعت عشرة فرنكات ثمن الطعام ، فالبور بوار خادم المائدة فرنك . وإذا زادت المدفوعات قلت نسبة البخشيش عن عشرة في المئة مما لا ضابط

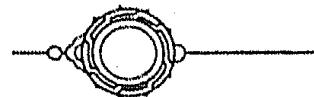
له . وفي ذلك مشقة على النازلين في الفنادق لأنهم لا يعرفون كيف يدفعون ، ولا من يدفعون فالخدمة كثيرون . والغالب أن يُقسم البخشيش بين الفراش والباب وخدم المائدة صاحب الرافعه «اسانسور» وغيرهم . وقد يكونون أكثر كثيراً ، ويختلف ذلك باختلافطبقات . فالداخل على مطعم فخم يستقبله خادم يتناول منه القبعة والشمسية ، وأخر يقدم له كرسيّاً على المائدة وهذا يخدمه في تبديل ألوان الطعام ، فإذا نهض تلقاء الخادم الآخر بالقبعة والشمسية ، وتقدم آخر ففتح له الباب عند الخروج ، وأخر يفتح له باب المركبة عند الركوب ، فهو لاء كلهم ينبغي أن يدفع إليهم البور بوار - وقد يزيدون على ذلك .

وأصل هذه العادة الغريبة عندهم على ما نظن تزاحم الغرباء على أماكن اللهو في زمن لم يكن الخدم فيه يستطيعون القيام بما يلزم من الخدمة . فأصبح من يريد تعجيل حاجته مضطراً أن يسترضي الخادم بدفعة خصوصية له . وتكرر ذلك حتى صار قاعدة . وأصبح خدمة أماكن الملاهي يَعْدُون البور بوار من جملة استحقاقاتهم وبعضهم لا يتتقاضى من صاحب القهوة أو المطعم أجرة . وفيهم من يدفع شيئاً من جيبيه لصاحب القهوة ليأخذ باستخدامه .

وما يستلفت نظر المصري في باريس أنت لا تجد في شوارعها متسولاً يعترض طريقك ، ولا متشرداً مستلقياً على الشارع ولا غلاماً عارياً أو شبه عار يتسلق الترامواي ، أو يعرض عليك خدمة من حمل حقيبة أو نحوها- لاشتغالهم عن ذلك بالمدارس .

ولا حاجة بنا إلى ذكر سهولة المواصلات ، والمخابرات عندهم كالتلغراف والتلفون والبريد ، فإنها مشهورة ، وعندنا أمثلة منها لكنها هناك أكثر شيوعاً . فالتلفون يكاد لا يخلو منه منزل أو متجر . وعندهم من طرق البريد مما لا مثيل له عندنا تذاكر ترسل مستعجلة في المدينة نفسها تتلقاها عليها مصلحة البريد ثلاثة أضعاف الأجرة المعتادة لكنها توصلها سريعاً كالتلغراف ، وهي ما يسمونه «بنوماتيك» pnumatique وهي تذكرة تكتب فيها ما شئت ، وتعنونها ، وتضعها في عين من صناديق البريد خاصة بهذه التذاكر ، وعمال البريد يتفقدون هذه العيون كل مدة قصيرة فإذا وجدوا فيه تذكرة أسرعوا في إصالها حالاً ، وهي ترسل عادة بضغط الهواء في أنابيب ممتدة

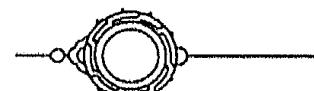
لذلك تحت الأرض .



نظام الاجتماع فيها

نظام الاجتماع من حيث أساسه واحد في كل بلد ، وإنما يختلف في تفاصيله باختلاف الأعمر والأقاليم . فالبيئة الاجتماعية في أبسط أحوالها مولفة من العائلة والحكومة والكنيسة . فإذا ارتفعت نشأت فيها المدارس والجمعيات الأدبية ، والشركات الاقتصادية . وتختلف هذه الجماعات في كل بلد باختلاف طبائع أهله ونوع مدنيةهم وسائل أحوالهم . فنظام الحكومة يختلف بين الاستبدادي والدستوري والجمهوري . ونظام العائلة في الشرق غير ما هو في الغرب ، وفي هذا العصر غير ما كان عليه قبله . كانت العائلة عندنا إلى أوائل القرن الماضي على شكل الحكم الملكي المطلق - الأب رئيس العائلة يستبدل في أهله استبداد السلطان المطلق في رعيته يزوج من شاء بن شاء ويعهد إلى من يريد بما يريد من عمل أو سفر أو إقامة - لا يرون في ذلك غرابة . ثم تعدل هذا النظام بعد دخولنا في المدنية الحديثة فأخذت العائلة تقترب من النظام الدستوري لكنها ما زالت اقرب إلى الحكم المطلق ويختلف ذلك باختلاف الأمم والأديان .

وبناء على ما للأقاليم أو البيئة من التأثير في أبدان الناس وعقولهم وطبعاتهم فاختلاف الأقاليم أوجب اختلاف الأمم في كل ، فلننظر في طبائع الأمة الفرنساوية على الأجمال .

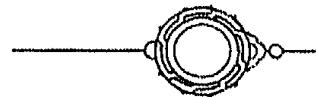


طبائع الفرنساويين

الفرنساوي عامل نشيط يدأب على العمل بحماسة وهمة . ولا سيما أهل الزراعة منهم فإنهم قويو الأبدان يعملون في حقولهم بنشاط . ولا تجده في فرنسا بقعة تقبل الزراعة غير مزروعة . وكذلك العمال والصنائع ، وسائل طبقات الناس ، فإنهم نشيطون في ذهابهم وإيابهم في كلامهم وأشغالهم وفي أسفارهم - فإن أحدهم ينزل من القطار

ويحمل حقيبته «الشنطة» بيده فإذا كان منزله قريباً سار إلى بيته ماشياً لا يرون في ذلك بأساً . على أنهم إذا طلبو غلاماً أو رجلاً يحمل لهم الحقيبة في أثناء الطريق لا يجدون . وهي صفة يشتراك فيها أهل أوروبا كافة . ويتأثر بها الشرقي حالما يطأ تلك القارة . وتقوم في نفسه رغبة في الهمة والنشاط فإذا رجع إلى بلده عاد إلى طبعه . إلا إذا توطن أوروبا طفلاً ومرجع ذلك إلى طبيعة الإقليم . والفرنساوي ذكيٌّ الفؤاد . سريع الخاطر . حاضر الذهن . فصريح⁽¹⁾ خفيف الروح فيه ميل إلى الفنون الجميلة وذوق في الصناعة .

الجمال



وللفرنساويين ذوق في الجمال لا تضارعهم فيه أمة . يظهر ذلك خصوصاً في الباريسيين فإنهم قدوة الأم في الأزياء على اختلاف أشكالها . ولهم ذوق في توليد الجمال بما لا جمال فيه من نفسه بترتيب أجزائه على شكل لا قاعدة له إلا الذوق . وهو على أرقى درجاته في باريس . تجد المرأة القبيحة الخلقة تتزياناً بزيٍّ يناسبها ، وتصف شعرها تصفيقة تناسب ملامح وجهها ؛ فتظهر جميلة . ولهم في تصفييف الشعر ، و اختيار شكل البرنيطة ولو نها طرق تختلف باختلاف تقاطيع الوجه ، ولو نه وشكل الأنف والعينين والجبهة والفم ، وغير ذلك فيوفّقون التصفيقة «التوالٌت»⁽²⁾ والبرنيطة على حال الوجه فيظهر جميلاً

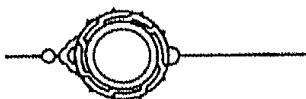
ويتبع ذلك ميلهم إلى تزويق الحديث ، فإنه من قبيل رغبتهم في الجمال الخارجي . فكما يوفّقون بين تصفيقة الشعر ، وحجم البرنيطة وشكل الوجه حتى يظهر جميلاً ، فهم أيضاً يحسنون الحديث حتى يلائم ذوق السامع فتنبسط نفسه له . لكنه لا يرى النتيجة دائماً كما كان يتوقعها . فالفرنساوي فيه ميل إلى إتقان الظواهر أكثر مما إلى إتقان البواطن ، وهو من قبيل حبه للجمال . ويخالفه الإنكليزي في ذلك كما سنبينه

(1) وردت منصوبة ، وصوابها ما أثبتناه .

(2) هي ما ندعوه اليوم التسريح .

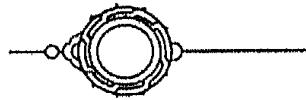
في مكانه . ومن قبيل ميلهم إلى الجمال واقتدارهم على توليد ما تجده في مخازنهم وشوارعهم من الزخارف التي يُراد بها التحسين . أي أن تظهر السلعة المعروضة أحسن مما هي . ومن هذا القبيل استخدام المرايا في الواجهات لإيهام الناس أنها أكبر مما هي . وإذا كان الحانوت صغيراً جعلوا جدرانه من المرايا فيظهر أضعاف ما هو .

الاقتصاد والترتيب



والفرنساوي مقتصد من فطرته ، وترى الاقتصاد ظاهراً على الخصوص في القرى ، فإن أصحاب المزارع الصغرى يعيشون عيشة بسيطة . والفللاح يشتغل وامرأته تشتغل وأولاده يشتغلون كلّ على قدر طاقته وحسب ميله . ولا بدّ لكلّ منهم إن يقتضي شيئاً من ربحه مهما كان قليلاً فيحتفظ به لنفسه . وهم يستخدمون الفرش البسيط عكس أهل المدن وكذلك ملابسهم . فالفللاح الفرنساوي بسيط في لباسه وأخلاقه ، ومهما يكن من فقره فإنه تجد هنظيف الثوب ، نظيف الفراش ، يأكل على المائدة بالشوكة والسكينة بترتيب ونظافة . فلا تستنكف إذا دخلت بيته من أن تجلس على مقعده ، وتأكل من طعامه ، وتشرب من كأسه . وليس كذلك الفلاح المصري . ولا سبيل إلى إصلاحه إلا بتعليم المرأة وتنقيتها وهي المدبرة لكل ذلك .

معرفة الواجب



ومن الخلل الحميدة الشائعة في معظم أوروبا ونحن في حاجة إليها «معرفة الواجب» وهي تشمل كلّ أعمال الإنسان . يعني أن يشعر الإنسان بما عليه فيؤديه من تلقاء نفسه بدون استثناث أو إرهاب أو ترغيب - لو فعل ذلك كل إنسان لاستغنى الناس عن الحكومات وأبطلت المحاكم . ولكن الناس يتفاوتون في هذا الباب وأكثرهم شعوراً بالواجب أقربهم من المدينة والارتفاع . وهو يستلزم الأمانة وهي أساس المعاملات وأكبر أسباب النجاح - ما أجمل أن يشعر الإنسان بما عليه فيؤديه بلا وازع أو مراقب . والفرنساويون من أكثر الأمم شعوراً به ، وكذلك الإنكليز . وربما ظهر

الإنكليز أكثر قياماً بالواجب؛ لأنهم يعملون كثيراً ويقولون قليلاً. وأما الفرنسياوي فميله إلى زخرف الكلام يُظهر أعماله قليلة. لكن الشعور بالواجب قوي في كلّيهما. ذكرنا في غير هذا المكان أن قومساري الترامواي لا رقيب عليهم «مفتش»، وهم لا يسلبون الشركة باستعمال التذكرة مرتين أو قبض الثمن بدون أداء التذكرة؛ لأن القومساري الفرنسي أو الإنكليزي نشاً وقد غرست والدته في ذهنه من طفوليته أن يعرف ما له فلا يطعم بسواء. ولو أراد السائق أن يطعم فإن الشعب أرقى من أن يتتساهم في هذا الأمر؛ لأنه تربى تربية راقية وعرف ما له وما ليس له، ويعلم أن تساهله مع القومساري في أمر التذكرة إنما هو مشاركة له في السرقة. ولكن كثيرين عندنا يتتساهمون في ذلك، وبعضهم يحرض القومساري على السرقة. والسبب في ذلك ضعف أخلاق العامة عندنا. وإن مثل الترامواي هذا على بساطته يدل على أخلاق العامة.

الثقة وقيمة الوقت وصدق الموعيد

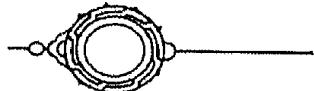
ومن قبيل الأمانة المبنية على معرفة الواجب، وما يترتب عليها من الثقة المتبادلة أن بعض باعة الجرائد في فرنسا وإنكلترا يضعون أعداد الجريدة فوق طاولة على الرصيف خارجabant، وبجانبها علبة. فمن أراد أن يبتاع جريدة وضع ثمنها في العلبة وتناول الجريدة ولا رقيب عليه. وصاحبها لا يخاف أن يسرقه المارة فيأخذ أحدهم الجريدة ولا يدفع الثمن. وقس على ذلك الثقة المتبادلة في سائر الحرف.

دخلنا مطعماً في لندن يوم وصولنا من باريس. وبعد الفراغ من الطعام دفعنا لصاحب المطعم ليرة فرنساوية فاعتذر بأن النقود الفرنسيوية لا تقبل عندهم. ولم يكن عندنا نقود غير فرنساوية. فوقعنا في حيرة وأردنا أن نترك الليرة له Rishma نعود وقد بدلنا النقود. فأعاد الليرة ليدينا وقال «دعها معك ومتى بدلتها تدفع ما عليك» وكانت هذه أول مرة رأينا فيها الرجل. أليس ذلك من الأخلاق الراقية؟ أن صاحبها يتصرّر رجلاً عليه حق لا يبادر إلى دفعه من تلقاء نفسه. ولا يدل هذا على خلو تلك البلاد من أصحاب الأخلاق الضعيفة ولكنهم أقلّ مما عندنا كما أنها لا تعني ضعف الثقة

عندنا في كلّ الطبقات . وإنما نريد الأغلبية .

ومن جميل ما نحسدهم عليه معرفة قيمة الوقت ، وهو يتوقف على معرفة الواجب أيضاً . فإنهم يقسمون أوقاتهم ويفرقونها على أعمالهم فلا يقترون بما عليهم ، ولا يضيعون أوقات أصدقائهم بالزيارة الحبية كما يفعل كثيرون فإن بعضهم يزورك في ساعة شغلك ولا شغل له ، ويعلم إنك مشغول فلا يختصر زيارته ، ولا أنت تحرّق على الاعتذار منه لشلّاً تُتّهم بالفظاظة ، ولكن هذه العادة آخذة بالزوال من بيننا في الطبقة الراقية .

وأعتبر ذلك في صدق الموعيد ، فإنه تابع للشعور بالواجب . وهو ينقصنا لكنه آخذ في الشيوع بين المتعلمين .

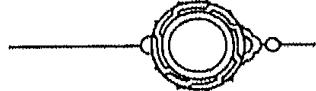


لا يعنيني

ومن الأخلاق الفرنساوية الشائعة في باريس اشتغال كلّ منهم بنفسه عن سواه فلا يتعرض أحد إلى شؤون جاره بالاستطلاع أو التجسس . وهو من طبائع أهل المدن الكبري وطبيعي شيوعه في باريس وهي ثالثة مدن العالم . وتجسس الأخبار والدخول في أحوال الآخرين يكثر في القرى الصغيرة لتفرّغ أهلها للأحاديث ، ولأنّهم مطلعون على عورات جيرانهم ولا يخلون من التحاسد أو التباغض . وكلّما اتسعت المدينة قلت تلك العادة فيها ، ولذلك كان أهل باريس من أكثر الناس بعدا عنها . فإن أحدهم يمشي وهمه نفسه ولا يلتفت إلى سواه . أو يجلس في القهوة ولا يلتفت إلى جليسه من هو . وقد يكون بجنبه رجل وامرأة يتغازلان أو يتداعبان فلا يهمه ذلك . وهذا ما نعبر عنه بضعف الغيرة ولا يستطيع الشرقي احتماله . أما الفرنسياوي فيتحمله ولسان حاله يقول «لا يعنيني» ولكنه مع ذلك جنوح إلى النجدة وفيه أريحية إذا استحقّته على منقبة⁽¹⁾ اندفع إليها بكلّيته ولو جرّه ذلك إلى خسارة أو حمله مشقة .

(1) المنقبة : الفعل الكرم .

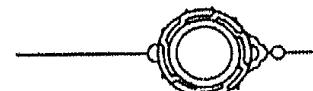
المفاخرة بالرجال والحرية



ومن سجاياهم أنهم يفاخرون برجالهم ، ويعظّمون النابغين منهم . وحيثما مررت بشوارع باريس تجد تماثيل العظام منصوبة في تقاطع الطرق ، أو واجهات القصور ، أو في الساحات العمومية يزيد عددها على مئة وستين تمثلاً كبيراً للقواعد ، والملوك والكتاب والشعراء وال فلاسفة والعلماء . وبينها تماثيل بعض مشاهير الأمم الأخرى مثل دانتي شاعر الإيطاليين ، وواشنطنون محرر أميركا وشكسبير الشاعر الإنكليزي ، وغريمالدي القائد الإيطالي . غير التماثيل الرمزية عن الحرية أو الاتحاد أو نحوهما . وغير التماثيل المنصوبة في المتاحف والمراسح والمدارس والكنائس والمنازل وهي عديدة جداً . وأكثرها شيئاً تمثال بونابرت على اختلاف أقداره وأشكاله . والتتماثيل تشير في النفوس الحماسة والميل إلى الاقتداء بأولئك العظام . وهي وسيلة حسنة لاستنهاض الهمم واستتحاث القرائح لا مثيل لها عندنا - إلا قليلاً .

ويمتاز الفرنساويون عن سائر أهل أوروبا بالنزوع إلى الحرية على اختلاف أوجهها . وقد مرت أجيال كانوا فيها نصراء الحرية يأخذون بأيدي طلابها وينصرونهم بالمال والرجال . وأشهر الشواهد على ذلك نصرتهم للأمير كان في طلب الاستقلال من سلطة الإنكليز . ومن قبيل تعشّقهم الحرية مغالاتهم في مطاردة بعض الجماعات الدينية . لكنهم تطّرقوا في ذلك حتى خرجن به إلى عكس المراد بالمدنية . ففترت الحاسّات الدينية ، وتوزع الناس إلى الشك في الدين ، وأآل الأمر في بعض الأحوال إلى فساد الآداب . لأن العامة لا تستغني عن وازع ديني يصلح من آدتها . ومن أكبر أسباب الفساد إلقاء الشكوك الدينية في أذهان الناس .

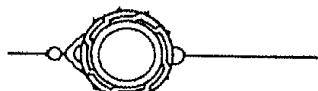
طعامهم وشرابهم



والفرنساويون يكثرون من أكل اللحوم في طعامهم ، وهو شأن أكثر سكان أوروبا وخصوصاً في البلاد الباردة لاحتياجهم إلى المواد اللحمية في مقاومة البرد . ولهذا

السبب أيضاً يكثرون من شرب الخمور ، وتکاد لا تجد بينهم من لا يشرب الخمر على المائدة رجالاً ونساءً وأولاداً . وكثيراً ما يجر ذلك إلى إدمان المسكر ، فكثير المدمنون عندهم ولا سيما في الطبقات السفلية كالعمال والصناع . أما شرب الخمر الاعتيادية فإنه عام ولا يشترط أن يكون على المائدة . ولذلك ترى وجوه الفرنسيين مشرقاً أو مشربة حمرة - ولا يدل ذلك على الصحة دائمًا ، وقد يدل على المرض . وترى صاحبه يميل إلى النعاس بعد الطعام ويظهر ذلك في ساقه المركبات بباريس . لأن أحدهم إذا لم يكن سائقاً مركبته لا تراه إلا نائماً على كرسيه ورأسه متبدلاً على صدره ، وقد احمررت وجنتاه وانتفخت أوداجه . وحوادث المسكر بمصر على كثرتها قليلة بالنسبة إلى تلك البلاد . ولكننا نشكو من شيوخ الحشيش بمصر رغم منعه رسمياً . على أننا سمعنا بوجوده في باريس أيضاً بأمكانه يعرفها طالبوه .

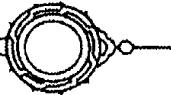
بقي علينا النظر في أمرين مهمين من نظام الاجتماع عندهم يعني طبقة العامة والمراة .



ال العامة

ومن قبيل النظام الاجتماعي أن تكون الأمة مؤلفة من طبقات ترجع إلى طبقتين : الخاصة والعامة ، وينختلف حال كل منها باختلاف الأم والأعصر وإن تشابها على الإجمال في كل بلد . فالخاصة وهم أهل الوجاهة والثروة يغلب أن يكونوا ممتازين في نفوذهم ومعيشتهم ، ويكون العامةتابعين لهم في أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على تفاوت ذلك بتفاوت أحوال المدنية وأنواعها .

فالعامة في التمدن القديم كانوا كما قال الإمام علي « هم يرعى أتباع كل ناعق » وقال معاوية : « إنهم أشباه البهائم إن جاعوا ساموا وإن شبعوا ناموا » وهم نحو ذلك في الشرق إلى الآن إلا في بعض البلاد الراقية . أما في الغرب فقد تغيرت أحوالهم حتى أوشكوا أن يقلبوا نظام الاجتماع ولا سيما في البلاد الجمهورية ومنها فرنسا وهو موضوع كلامنا في هذا الباب .



إنَّ العامة في فرنسا يختلفون عن عامتنا بأمور كثيرة : منها أنهم أرقى تربة ، وأوسع تعليمًا فلا تجد فيهم من لا يحسن القراءة والكتابة . وحيثما توجّهت ترى البوابين وساق المركبات وصغار الباعة وخدم المنازل والقهوات حتى مساحي الأحذية يطالعون الجرائد والكتب ، ويهتمّون بالشئون العامة ويبحثون في السياسة ، ويتناقشون في التعليم والأحزاب وينتقدون أعمال الحكومة . والسبب في ذلك «حقوق»⁽¹⁾ فإنه عام في كل بلدة وقرية ؛ فتنبّهت الأذهان وفتحت الأعين وتعلم العماني معنى الاجتماع والاتحاد ، وخصوصاً بعد الانقلاب الذي جعل كلّ شيء في أيدي العامة لأنهم قلبوا الحكومة واستبدوا في الشرفاء والأمراء . فتشكلّت الأحزاب من العامة ، وارتفقت نفوسهم . ورافق ذلك كثرة الاختراعات الصناعية التي أغنت أصحاب الأموال «الخاصة» عن كثير من العمال فتضيق العمال وهم من العامة واضطروا إلى الاجتماع والاحتجاج والمطالبة وهو الاعتصاب . وساعدهم على ذلك شيوع مذهب الاشتراكية ، واحتياج النواب إلى العامة في التصويت عند الانتخابات النيابية ، وكل نائب يجتهد في اكتساب رضى القوم في البلد الذي ينوب عنه حتى يصوتوا له . فازداد العامة نفوذاً وطمعاً ، وأكثروا من الاعتصاب حتى اتبعوا أصحاب الأموال وحملوهم خسائر عاد معظمها على الجمّهور لأنها آلت إلى ارتفاع الأسعار .

فالحرية التي نالها العماني^١ الفرنسي صانت حقوقه من جهة لكنها أضرت به وبالآمة من جهة أخرى . لأنَّ العماني مهما بلغ من ارتقاء لا يبرح قصير الإدراك ، وإنما يتدرّب على الاجتماع والصياغ مع الصائحين فينحاز إلى هذا الحزب أو ذاك لا عن تفطن وإدراك وإنما هو يُساق بعواطفه ويندفع بما يخطر له حسب المؤثرات الخارجية . والعماني^١ الفرنسي مُدمِن للمسكر كما تقدّم . أضعف إلى ذلك حدّه مزاجه فإذا ضربت له وتراً حساساً كالدين أو الوطنية أو غيرها اندفع لما تُريده منه . فالغلبة لمن يستطيعون استهواء هؤلاء العامة لأغراضهم بالفصاحة أو نحوها .

(1) كذا وردت في الأصل ، والعبرة ناقصة ، والمقصود من السياق أن العامة مطلعون على حقوقهم عارفون بواجباتهم .

والنفوذ الحقيقي للخاصة لأنهم أقوى عقولاً وأكثر وسائل -ذلك هو شأن الجماعات في كل بلد: يختص الخاصةُ على السيادة أو الكسب؛ فيستنصرون العامة بعضهم على بعض بما يستطيعون من الأساليب فينصرونهم، وينفذون أغراضهم، وال العامة يتوهّمون أنهم يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم . مهما بلغ من رقيّ العامة وحرثت لهم فالخاصّة هم أصحابُ السيادةِ الحقيقة ، وهم كالآوصياء على العامة يسّرون لهم الشرائع ويضعون لهم القوانين ويدربونهم في شؤونهم السياسية والاجتماعية حتى أحوالهم اليومية . فإنّ الحكومة الفرنساوية تهتم بها كثيراً ، وقد فرضت على العامل أن يرتاح يوماً في الأسبوع فإذا لم يفعل عدّ مذنبًا . وإذا كان عمله لا يأذن له بالراحة كخدمة المطاعم والقهوات ونحوها ، دبرت الحكومةُ وسيلةً تمكنه من الراحة . وذلك أنها أمرت العامل من هؤلاء أن يختار يوماً من الأسبوع يرتاح فيه ، وعيّنت من يقوم مقامه في ذلك اليوم ويستولي على أجرته . وعندهم طائفة من العمال تحت الطلب لهذا الغرض . وبهذه الواسطة يشغلون سبع العمال ويربحون جمهورهم . لكن بعض العمال يشتكون من هذه المعاملة لأنها تصيب عليهم سبع دخلهم ، ولا نهم ينفقون في يوم الراحة أكثر من يوم الشغل . وللإنكлиз عنایة مثل هذه أو أشدّ منها في تدبّر شؤون العامة سنّاتي عليها في مكانها .

المراة في أوروبا

كانت المرأة في الأعصر المظلمة بأوروبا وغيرها مرتدةً محتقرةٌ تُعدّ من قبيل المتع ، وكان للرجل أحياناً أن يبيع امرأته بالمزاد العمومي . وتفنّن الكتابُ والشعراء في هجائها وانتقادها . وتباحث اللاهوتيون طويلاً في «هل للمرأة نفس» وزعموا أنها «باب جهنم» و«معمل أسلحة الشياطين» ، وصوتها فحيخ الأفاعي» وإنها «باب الشياطين» و«سامّة كالصليل» ، وحقودة كالتنين» وقال الشاعرُ العربي :

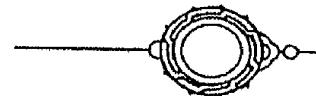
إِنَّ النِّسَاءَ شَيَاطِينَ خَلَقْنَ لَنَا

نَعْوَدُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ الشَّيَاطِينَ

فلما بزغ نور التمدين الحديث ، وتحولت العلوم والمعارف من النظريات والتقاليد إلى

الاختبار والدرس كان في جملة ما همّهم «المرأة» فأدركوا خطارة⁽¹⁾ مركها في الهيئة الاجتماعية وأن النجاح معقود بتعليمها وترقية نفسها . لأنها قوام العائلة ، ومربيّة الأبناء وشريكة الرجل في أحوال الحياة . فقدموها وعلّموها ورفعوا منزلتها ؛ فقامت تطالب بحقوقها . واختلف الكتاب في مقدار تلك الحقوق لكنهم اتفقوا على احترام المرأة وإجلالها حتى مثلوا بها الفضائل والمفاحر ، فإذا أرادوا تصوير الحرية مجسّمة نحتوا لها تمثال امرأة . وهكذا فعلوا بتمثيل الاتحاد والبلاغة والعمل وغيرها من الفضائل الجردة فإنهم يمثلونها بصورة امرأة . والفرنساويون من أكثر الأمم احتراماً للمرأة .

المرأة الفرنساوية



أخرجوا المرأة من ظلمات الجهلة ، وأطلقوا سراحها ، واعترفوا بحقوقها وساووها بالرجل ماله وما عليه . فبرزت من خدرها ، وتعاطت أعمال الرجال ، وسابقتهم في كثير من أعمالهم ؛ لأنها أقلّ أجرة من الرجل فكثر استخدامها في ما تستطيعه من المناصب والمهن . فمن النساء عندهم بائعات في المخازن وعاملات في الناجم والمصانع والمعامل وخدمات في المنازل وكاتبات في المتأجر والشركات وفي بيوت التلغراف والتلفون والبريد وحاسبات في المصارف . وقد تعاظين أهم المهن العلمية كالمحامية والطب والتحرير والشعر والتأليف والوعظ والعمل في معمال الكيمياء والبكتريلوجيا ، وغير ذلك . وأنشأن الجمعيات العلمية والأدبية والأندية الاجتماعية . وأفن الأحزاب السياسية للمطالبة بحقوقهن . وتعاظين كثيراً من الصنائع الحقيقة ، أو المتبعة فمنهن غارسات في الحقول ومنظفات في الشوارع - حتى سوق المركبات فقد شاهدنا واحدة منها تسوق مركبة بالأجرة في شوارع باريس فأدھشنا ذلك ، فأخبرنا صديق كان معنا في أنّ في باريس 12 سائقة مثل هذه ، والسبب في نزول المرأة هذه المنزلة عندهم أن الفتاة الفرنساوية تنشأ في منزل والديها كما ينشأ الغلام ، ويطلب منها أن تتكتسب بالشغل كما يتكتسب هو . وهي تجالس

(1) كلّا وردت ، والصواب : خطورة .

الرجل وتحادثه وتباحثه في كلّ موضوع كأنها رجلٌ مثله وتسافر للسياحة والاستكشاف وحدها لا ترى في ذلك بأساً أو غرابة مما لم تألفه في بلادنا . فإن فتاتنا تتعلم أو لا تتعلم ، ثم تمكث في منزل والديها في انتظار نصيبها للزواج وزينتها الحشمة والحياء ، ولا يخطر لأهلها أن تعمل عملاً . فهي إما أن تتزوج أو تبقى عانساً في بيت أبيها ولا تستغل إلا نادراً . وأكثر اشتغالها بالتعليم أو الخياطة ويندر أن تتعاطى عملاً آخر . ومهمما بلغ من حريتها فهي لا تجالس غير معارفها وذوي قرباها .

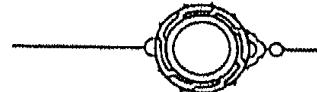
أما الإفرنجية فحالما تخرج من المدرسة تضي إلى السوق كما يضي الشاب ، فإذا أتاها النصيب تزوجت ، فيشغلها الزواج عن الارتقاء اكتفاء بعمل زوجها . وإلا فإنها تشتعل هي أيضاً . ولا يخفى ما ذلك⁽¹⁾ من تضاعف الأيدي العاملة في الأمة الفرنساوية أي أن العمال من الجنسين نحو ضعفي العمال عندنا بالنسبة إلى عدد السكان . والمرأة الفرنساوية في القرى والبلاد الصغيرة مثال الاقتصاد والترتيب والعطف على أولادها والأمانة لزوجها ، وكذلك المرأة في العائلات الراقية من الطبقة الوسطى والعليا . لكن هذه الحرية أدت في المدن الكبرى إلى تشويه ذلك الجنس اللطيف في طبقة معينة من العامة . وهذا التشويه أخذ في الامتداد ، ويخشى أن يجر إلى انقلاب اجتماعي وخصوصاً في باريس أم المدائن الجميلة .

كنا نشكو من جهل الفتاة الشرقية وحجبها ، ونحسد الفتاة الإفرنجية على تعلمها وحريتها ، فلما رأينا حالها في باريس انقلب شكوانا ، وكدنا نرضى بالحجاب والجهل - إنهم أسواؤا إلى ذلك الخلوق اللطيف بتلك الحرية المتطرفة . أرسلوا المرأة إلى الأسواق تختلط الشبان وتباعيهم وتساومهم وتعاشرهم ، وهي ضعيفة حساسة ؛ فتعرضت لمفاسد كثيرة . وأغرتها الشبان بالمال فخدعواها . فلما خرجت من صفت الحرائر خدعوهم . ثم آل أمرها إلى ضياع العمر في الشوارع والأزقة لا تجد رزقاً إلا باستهواء الشبان . وفي القاهرة مثال صغير من تلك الطبقة يُعرفن ببنات الرصيف . أما هناك فـإنهن ألوف ، ولا تكاد تخلو منهن حديقة أو منتزه أو شارع ، ولا سيما في أثناء الليل ولا حرج عليهم بحجة الحرية الشخصية . والحكومة الفرنساوية تُبيح

(1) كما وردت ، وأحسب الصواب ما في ذلك .

الفحشاء على شروط وضعتها وقوانين سنتها . فأباحت للمتجررين بالأعراض أن يبتتوا المنازل والقصور ، ويحشدون فيها الغواني أصنافاً ولواناً يعرضونهن عرض السلع أو الأثاث بلا عيب ولا حياء . ولهم سماسراً في أيديهم شهادات من الحكومة تخول لهم معاطاة⁽¹⁾ تلك المهنة . ولهذه الطبقة من المتهتكين مجالس وأندية وجرائم وكتب لترويج تلك البضاعة . وليس ذلك جائزًا في إنكلترا . ولكن مصر اقتدت فيه بالفرنساويين كما اقتدت بسواء من أسباب تدّنهم . وما كان أجدرنا أن نأخذ الحسن النافع من أسبابه ، ونعرض عن القبيح الضار .

الإرساليات المصرية



ومن قبيح هذه الحرية في باريس أن من تلك الشباك الجهنمية كثيراً في حي Quartier Latin فيه أكثر المدارس العالمية التي ترسل مصر إليها شبابها ليتلقّوا فيها الحقوق والطب أو غيرهما . ولا مندوحة لهم عن الإقامة هناك ، والتعرض لتلك الأخطار في المراقص والملعب حيث يختلط الشبان بالشابات . فلا ينجو من ذلك الخطر إلا قوي الإرادة ثابت العزيمة . ولكن الإنسان ضعيف ولا سيما الشاب القادم من بلاد لا يرى فيها المرأة إلا محتاجة ، وهو في بلده بين أهله ومعارفه يمنعه الخجل من مخالطة غير المحتجبات . أما في باريس - وكل شيء فيها مباح - فانه يرى الشبان والشابات في الطرق أزواجاً «غير مطهرة» ذكراً وأنثى بلا حرج ولا خجل يتذمرون ويتجاوزون . ويجد من رفاقه من يغريه على الرذيلة ، ويحبّبها إليه باسم الحرية فإذا أحجم عيّره بالضعف . فهل يلام أولئك الشبان على السقوط؟ وإنما اللوم على الذين يرسلونهم إلى تلك المدارس . وإذا كان لا بد للحكومة المصرية ، أو الآباء من إرسال أبنائهم إلى مدارس فرنسا فمن الخطأ إرسالهم إلى باريس وتعريفهم لتلك الأخطار .

. (1) ممارسة .

على أن هذه الطبقة من النساء ليست كلّها من أهل تلك العاصمة ، فإن فيهنَّ كثيرات من أهل الأرياف الفرنساوية أو من خارج فرنسا . وبعضهنَّ من روسيا وألمانيا وغيرها . ويندر بينهنَّ القادمة إلى باريس بقصد العهرة . وإنما يفدين أكثرهنَّ إليها لاراتزاق ببعض المهن ؛ فيتعرضن للوقوع في تلك الفخاخ ، ويعينهن الفقر على الوقوع فيها ، لأن البائعة في مخزن أجرتها فرنكوان أو ثلاثة في اليوم تنفقها على الطعام للباس والمنام يقع نظرها كلَّ يوم على عشرات من شبّيهاتها في الخلقة أو أقل منها جمالاً ، وكلَّ منها قد تأبى زندها شاب كساها أحسن الأقمشة ، وزينها بأجمل الخلبي . فإذا قويت هذه البائعة المسكينة على محاربة الحسد ، فإنها لا تقوى على مدافعة من يتعرّض لها من أولئك الشبان الذين يغرونها بالمواعيد العريضة . ويتحبّبون إليها بإطراء جمالها وشکوی الغرام ، وغير ذلك فتقع في الشراك . ولا يعاشرها ذلك المغرم إلا مدة ثم ينتقل إلى سواها . فتصبح غير قادرة على العمل في مهنتها الأولى ، ويهون عليها الارتزاق من أمثال ذلك الشاب . واعتبر كيف تكون حالها متى ذهب شبابها وذوى جمالها

فالعلة الأصلية في شيوع التهتك بباريس ، إنما هو إطلاق سراح الفتاة ومساواتها للرجل ، وتوكيلها الارتزاق مثله ، وإباحة الحكومة للفحشاء رسمياً . وزد على ذلك أنَّ الفتور الديني شائع في فرنسا حتى أصبح شبانها يعدون العهرة ضرباً من التجارة ولا فرق عندهم بين الفحشاء والتعمت بسائر ملاذ الحياة كالطعام والشراب والسمعان ونحوها . فيغرون المرأة على ذلك فتطيعهم . وليس أقبح من فتور المرأة في الدين ؛ لأنها أقرب إلى التقوى من الرجل ، وأكثر تعفّفها من طريق الدين خوف العقاب . وهي دقّيقة الإحساس سريعة التأثر ، فإذا لم يستغل قلبها بالتقوى والرهبة من العقاب خيف عليها السقوط إذ ليس لها ما للرجل من قوة الإرادة . ومع ذلك فإنه أكثر سقوطاً منها لكنَّ الناس لا يعيرون سقوطه كما يعيرون سقوطها - وذلك من جملة مظالم نظام الاجتماع .

في شوارع باريس ألف من الفتيات لو لا هذه الأسباب لكانَ أمهاتٍ ورباتٍ عائلات يرتدين أبناءهنَّ رجال المستقبل على الفضيلة بدلاً من ضياع شبابهن في الرذيلة ، ويسبيع معهنَّ ألف من الشبان بلا عقب . لأنَّ هذه الإباحة من أكبر أسباب

العقم في فرنسا إذ يمسك الشبان عن الزواج تخلصاً من متابعته وهمومه ، واكتفاءً بملاده الوقتية بشمن قليل لا مسؤولية بعدها ولا تعب . فلا نبالغ إذا قلنا إن فرنسا بين يدي خطر اجتماعي يهدّدها ، ولا تخرج منه إلّا بعد انقلاب عظيم .

بلغ عدد اللقطاء في باريس للعام الماضي ثمانية عشر ألفاً لا يُعرفُ أباً لهم ، فهم من نتاج هذه الرذيلة . من نتاج الإفراط في الحرية والفتور في الدين . إنّ الجهل والمحجّب يضرّان المرأة ، ويؤخّران الهيئة الاجتماعية عن أسباب المدنية ، لكنّ الحرية الزائدة مع العلم أو بدونه تفسد المجتمع الإنساني وتضرّ بالعائلة . وحال فرنسا الاجتماعي أكبر شاهد على ذلك لأنّ إحصاءها يكاد يكون الآن كما كان منذ أربعين سنة ولم تبق أمة لم يتضاعف إحصاؤها في أثناء هذه المدة .

خلقت المرأة أمّاً تدبر العائلة وتربّي الأولاد . وتعلّيمها ضروري للقيام بهمّتها الطبيعية في الشؤون العائلية . وأما تكليفيها بأعمال الرجال فإنه خارج عما خلقت له - إلّا إذا اضطُررتُ إليه لأسباب قهرية . ولكننا نرى بعض كبار العلماء يجيزون لها كلّ عمل يعمله الرجل ، وأن تتعاطى كلّ صناعة أو مهنة لأنّها مساوية له . وبعضهم ألف كتاباً في هذا الموضوع خلاصتها أنّ المرأة يجب أن تعمل كلّ أعمال الرجال من صناعة أو علم أو تجارة أو زراعة بحجّة تضاعف الثروة بتتكاثر الأيدي في العمل . وهو رأي نظري لا ينطبق على حاجة المجتمع الإنساني . إذا نزل الرجل والمرأة إلى السوق من يربّي الأطفال ويدربهم ويُعنى بأحوالهم؟ فإن قيل إنّ المراضع والخدم يفعلون ذلك قلنا : إنّ الطفل لا تربّيه إلّا أمّه . وإذا فرضنا قيام الخدم مقامها ، فالنفقات التي يستلزمها استخدامهم تستغرق ما تكتسبه المرأة بالعمل خارج بيتهما .

ومهما بلغ من ارتقاء الجنس البشري في الاستكشاف والاختراع فإنه لا يقوى على قلب نظام⁽¹⁾ . وهذا النظام يقضي على الأم أن تربّي طفلها بحيث لا يخرج من دائرة عنايتها . وأن يكون هو أهمّ مشاغلها مع تدبير بيتهما وليس ذلك بالشيء اليسير . إنّ القيام بشؤون العائلة لا يقلّ أهمية عن أعظم عملٍ من أعمال الرجال في التجارة أو السياسة أو الصناعة أو غيرها .

(1) كذا وردت ، وأحسبه أراد : نظام الأمة .

الخلاصة

في مدنية فرنسا وغيرها من مدنيات أوروبا حسنت كثيرة يجب علينا اقتباسها والاستفادة منها . ولكن فيها سمات يجب تجنبها والابتعاد عنها . فالحسنات التي يحسن بنا اقتباسها هي :

1 معرفة الواجب .

2 الحافظة على الوقت وصدق الموعيد .

3 تهذيب أخلاق العامة بال التربية الصحيحة .

4 تعليم المرأة وتنقيتها .

5 ترقية التعليم والتسع في الآداب .

6 العمل والجد .

أما ما يجب علينا تجنبه من أدران تلك المدنية أهمه :

1 الإفراط في الحرية واستخدامها في غير موضعها .

2 ما يخالف الخشمة الشرقية . على أن نأخذ من العلم والتربية القدر الملائم لعاداتنا .

3 الفتور في الدين والمجاهدة في الكفر ؛ فإنه من أسباب ذلك الخراب .

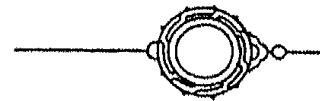
وستتكلّم عن متاحف فرنسا وأثارها فيما يلي

آثارها

المراد بالأثار عادة ما يتخلّف عن الأمة من الأبنية والتماثيل وغيرها من المصنوعات المحسوسة الدالة على عظمتها أو مهارتها كالآثار المصرية واليونانية والرومانية . ولكن للأمة آثاراً معنوية تتناقلها الأم عنها وتقلدها فيها ، فيكون لها أثر حي في تمدنها ونظام اجتماعها ، أو علومها وأدابها فيذكرها لها التاريخ . كما نذكر أحرف الهجاء للفينيقين والأدب والفلسفة لليونان والشريعة للحامورابيين واليهود ، والقواعد السياسية والحربيّة للرومانيّ ، ونهوض أمّ الشّرق للعرب . فأثار الأمة

الفرنساوية معنوية ، أو محسوسة .

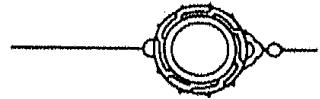
أثار فرنسا المعنوية



فآثار فرنسا المعنوية في هذه المدينة كثيرة منها :

1. الحرية واستقلال الفكر : إن للفرنساويين الفضل الأول في نشر روح الحرية بأوروبا وغيرها . وهم قدوة الأم في بثّ هذه الروح على أثر نهوضهم خلع نير الملكية والمناداة بالحرية والإخاء والمساواة .
2. استخدام اللغة الفرنساوية في المخاطبات الرسمية بين الدول المتقدمة . فإنه من آثار نفوذ الدولة الفرنساوية في العالم المتقدم .
3. الألفاظ الفرنساوية السياسية والعلمية والأدبية في لغات أوروبا فإنها من أدلة تفوق الفرنساويين في هذه الشؤون واقتباس تلك الأم عنها .

فضلها على الشرق



لفرنسا فضل خاص على الشرق الأدنى من أوجه كثيرة تظهر آثاره في أخلاق أهله وأدابهم . إذ لم يكن لهم علم بأسباب المدينة الحديثة قبل أواخر القرن الثامن عشر إذ حمل عليه بونابرت يريد اكتساحه كما اكتسحه الإسكندر قبله . لكنه لم يأت به بالعدة والسلاح فقط بل نقل إليه بذور التمدن وأصول المعرف . فأرفق حملته الحربية بحملة علمية جمعت نخبة علماء فرنسا في ذلك الحين . لم يوفق بونابرت في فتوحه الشرقية ؛ فعاد على أعقابه وظللت تلك البدور كامنةً حتى نهض من رجال الشرق من أحسن تعهُّدها وتربيتها ؛ فنمت وكان منها ما كان من نهضة مصر والشام . فالسوريون والمصريون والأتراك والفرس لما همُوا بهذه المدينة كان معظم تعوييلهم في اقتباسها على الأمة الفرنساوية . فتعلّمُوا لغاتها⁽¹⁾ وترجموا علومها ، وقلدوها بآدابها

(1) كما وردت والأصح لغتها لأن للفرنسيين لغة واحدة .

وعاداتها وأخلاقها - كذلك فعل المصريون على يد محمد علي⁽¹⁾ بأواخر القرن الماضي ، فإن الإصلاحات التي أحياناً بها القطر المصري كان أكثر تعويلاً فيها على الفرنساويين . استخدم جماعة منهم في التعليم والتنظيم . مثل المسيو جو مار المهندس الفرنساوي الذي أرشده في الإرساليات العلمية إلى فرنسا . والدكتور كلود أنشأ له المدرسة الطبية ، وسليمان باشا «الجنرال سيف» نظم له الجنديه ، وللينان باشا هندس القنطر الخيرية . وهناك عشرات من رجال العلم والأدب الفرنساويين استخدمهم محمد علي في نهضته . ونقل كثيراً من الكتب الفرنساوية إلى اللغة العربية . واقتبس طرق الفرنساويين في المدارس والجندية وفي الزراعة والصناعة وغيرها .

واقتدى به خلفاؤه على العرش الخديوي ولا سيما إسماعيل فإنه استخدم كثيرين منهم في الإدارة والتعليم . وأشهرهم مارييت باشا مؤسس المتحف المصري . ولا يزال هذا المتحف في عنانة الفرنساويين إلى اليوم .

والفرنساويون أول من أنشأ جريدة مصر «فرنساوية» ، وهم أول من أسس مجتمعاً علمياً فيه «institut» وأول من نقل إليها أدوات الطباعة - يعني المطبعة التي أتى بها بونابرت في حملته وكان يطبع عليها منشوراته وأوامره بالعربية . فلما أراد محمد علي أن ينشئ المطبعة الأهلية كانت تلك المطبعة أساساً لعمله .

واعتبر ذلك أيضاً في سوريا ، فإن للفرنساويين شأناً خاصاً فيها ؛ لأنهم دخلوا في شؤونها منذ بضعة قرون ، ولا يزال السوريون حتى الآن يقلدون فرنسا في أسباب هذه المدنية ، وقد نقلوا أهم أدابها إلى العربية . وقلدوا شعراءها وأدباءها ، وبعضهم يعرف عن تاريخ أداب اللغة الفرنساوية أكثر مما يعرف عن أداب اللغة العربية - إلا التمثيل ، فإن مارون النقاش اقتبسه عن الإيطاليان ، لكن من جاء بعده عول في إتقانه على الفرنساويين .

ولما نهض الأتراك في الاستانة لاقتباس المدنية الحديثة كان أكثر اعتمادهم في

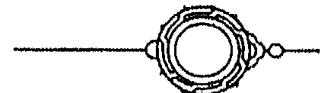
(1) هو محمد علي باشا مؤسس السلالة الخديوية في مصر .

(2) تولى الحكم سنة 1805 - 1849 وحقق لمصر نهضة شاملة .

نقل الآداب الحديثة على الفرنساويين . فنقلوا عن روسو ، ومونتسكيو ، وهوغو⁽¹⁾ وغيرهم . وأكثر الأفكار الحديثة التي اقتبسها الشرقيون في القرن الماضي أخذوها عن الأدباء الفرنساويين .

وهكذا فعل الفرس لما أخذوا في نهضتهم بأواسط القرن الماضي ، فإن ناصر الدين شاه أرسل سنة 1854 أربعين شاباً من أدباء الفرس وأهل العصبية إلى فرنسا للتلقي بالعلوم كما فعل محمد علي قبله . وعاد هؤلاء إلى بلادهم ، وعملوا على نشر العلم بإنشاء المدارس على اختلاف مواضيعها . وهكذا فعل أيضاً في تنظيم الجند فإنه النظام على النمط الفرنسي ، وبعث إلى فرنسا 20 ضابطاً تخرجوا فيها على ذلك النظام .

آثار فرنسا البنائية

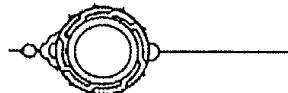


أما الآثار البنائية في فرنسا فإنها لا يمكن حصرها ، وإنما نقتصر على ما شاهدناه منها في باريس ولليون . وهو كثير يدخل فيه القصور والجسور والميادين والكنائس والمراوح والأضرحة نكتفي بذلك عامة ونخصل بالوصف أهمها ، فالكنائس في باريس عديدة تزيد على 70 كنيسة أشهرها نوتردام . وهي كنيسة قديمة العهد أعيد بناؤها في النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد ، ثم جُددت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ولم يتم بناؤها إلا في منتصف القرن الثالث عشر مع إضافات وتجديدات لحقت بها بعد ذلك . وأجمل ما فيها من حيث فن البناء واجهتها ، تم بناؤها سنة 1240 .

مساحتها 130 متراً طولاً في 40 متراً عرضاً و35 متراً علواً قبتها قائمة على 75

(1) جان جاك رسو (1721 - 1778) كاتب فرنسي وفيلسوف اجتماعي ، ومونتسكيو : كاتب فرنسي من أبرز مؤلفاته "روح الشرائع" الذي كان له كبير الأثر في تطور الدستور الفرنسي إبان الثورة (1689 - 1755) . أما فيكتور هوغو (1802 - 1885) فهو شاعر وكاتب فرنسي من أعلام الحركة الرومنтикаية الإبداعية) في فرنسا .

سارية كبيرة أكثرها مستديرة الشكل رومانية . والمنبر في الصدر قائم على 108 أعمدة صغيرة متقدمة الصنعة والنقوش . وفي أرض الكنيسة وجوانبها عدد كبير من الأضرحة للمشاهير ، ولا سيما أساقفة باريس . وأهم ما في هذه الكنيسة مما يهم القراء الاطلاع عليه خزانة تحفها . وهي غرف بنيت سنة 1850 فيها تحف أكثرها حديث ليس له أهمية فنية وإنما أهميتها بانتسابها إلى مهديها . منها كأس مقدس من الذهب أهداء نابليون الثالث للكنيسة . ومن التحف القديمة صندوق منقوش ينسب للقديس توماس بيكت على طرز القرن 13 ومن الآثار التاريخية الصليب المذهب الذي حمله القديس فنسان دي بول قرب فراش لويس الثالث عشر وهو يحتضر . والرداء الذي اتسع به نابليون بونابرت عند تتوبيجه . وللكنيسة نوتردام برج علوه 69 متراً .



كنيسة لاوفير في ليون

ورأينا في ليون كنيسة قدية العهد تعرف بكنيسة نوتردام دي فوفير يحج إليها الناس من أطراف العالم المسيحي بأوروبا . قائمة على تل علوه 297 متراً يصعدون إليها بترامواي كهربائي يُجرّ بالأسلاك الغليظة يرجعون بتاريخ بناها إلى القرن التاسع . ثم تجددت مراراً آخرها في أوائل القرن الماضي . وقد احتفظوا بكثير من البناء القديم . طول الكنيسة من الداخل 66 متراً في عرض 19 متراً ، وإنما استلفت نظرنا ما على جدرانها من الصور الكبيرة المرسومة بالفصيفساء طول الواحدة بضعة أمتار في مثلها عرضاً مرسومة في الأجيال الوسطى . منها صورة معركة بحرية جرت سنة 1571 في مضيق لبانت قرب كورنشية⁽¹⁾ بين أسطول السلطان سليم الثاني العثماني وأساطيل إسبانيا والبندقية وجنوبي ومالطنة والبابا بيوس الخامس . وهي معركة شهيرة في تاريخ الدولة العثمانية انتهت بفشل العثمانيين . كانت العمارة⁽²⁾ العثمانية مؤلفة من 300 دارعة بقيادة القبودان موزن زاده علي باشا . والعمارة المسيحية مؤلفة من 79 دارعة

(1) مرفأ في جنوب اليونان ، من مدن اليونان التاريخية ، فيه آثار هامة من أهمها هيكل أوليون .

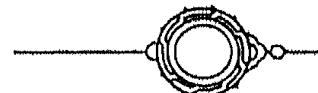
(2) العمارة بفتح العين : مجموعة من السفن الحربية .

بقيادة دون جوان دوتريش و12 دارعة للبابا بيوس بقيادة مارك أنطوان كولونا و14 دارعة بقيادة فانيرو البنديقي . غير الجندي الأسباني . ولما التقى الجيшен في ذلك المضيق تبادلوا إطلاق المدفع فأصيب القبودان العثماني بقنبلة قاتلة ففشل جنده . وتوقف العثمانيون عن مواصلة الفتح غرباً كما توقف العرب عن الإيغال في أوروبا بعد واقعة بواثية التي غلبهم فيها شارل مارتيل قبل ذلك بثمانية قرون .

وقد مثل المصور تلك المعركة وفيها سفن جيشين ومواقعهم حتى انتهت باحتراق سفن العثمانيين . وكل ذلك بالفسيفساء الملونة ولا تزال واضحة مع أنها صنعت منذ نيف وثلاثة قرون .

وهناك صور أخرى مثل هذه تمثل بعض الحوادث الدينية منها وصول القديس بونين إلى ليون . وبعض تلك الصور كاد يمحى من طول الزمن .

قصر الأنفاليد في باريس



وفي باريس من التماثيل ، أو الأنصاب في الشوارع العمومية عدد كبير ذكرناه في غير هذا المكان . فنكتفي هنا بذكر أهم ضريح يعظمـه الفرنسيون ويشارـكـهمـ في تعظـيمـهـ سائرـ الأمـ نـعنيـ ضـرـيـحـ نـابـليـونـ بـونـابـرتـ فيـ قـصـرـ الأنـفالـيدـ .

وقصر الأنفاليد بناء فخيم مؤلف من قاعات عديدة بعضها متاحف للأسلحة التاريخية وبعضها لمعرضات أخرى . أهمها القبة التي تتضمن ضريح نابليون الأول سنعود إليها بعد الإيجاز في وصف أهم ما يحويه قصر الأنفاليد من الآثار والتحف وإن كانت هذه من قبيل المتاحف لكننا نذكر هذا على سبيل الاستطراد . فهي ساحة القصر مدافع تاريخية منها 17 مدفعاً من جزائر الغرب عليها كتابة عربية إلى أحد جانبيها مدفع صيني وإلى الجانب الآخر مدفع كوشتشيني . غير مدفع نمساوية صُبّت في فيتها بالقرن السابع عشر حملها نابليون إلى باريس سنة 1806 ، ومدفع حمل في معركة سباستبول سنة 1856 وغيرها .

أما القصر فقد بناه لويس الرابع عشر . بدأ به سنة 1671 مساحته 126985 متراً مربعاً عرض الواجهة 210 أمتار ، أنشأه ليقيم فيه المتقاعدون من الجندي الفرنسي

يسع 7000 جندي . وقد تغير الغرض المراد به ذلك . واستخدموها قاعاته للمتحف العسكرية منها متحف الطبجية والمتحف التاريخي . وفي متحف الطبجية نحو عشرة آلاف قطعة من البنادق والمدافع القديمة والحديثة مرتبة حسب أنواعها بينها الأعلام والأدراج والخوذ . وفي جملتها أسلحة ألمانية من أوائل القرن السادس عشر . وبين الأعلام علم جان دارك . وفيها أسلحة البوربونيين من لويس الرابع عشر فما بعده ، وبينها سيف فرنسيس الأول ، وهنري الثاني ، وشارل التاسع ، وغيرهم شئع كثير .

وهناك أسلحة شرقية في قاعة خاصة بخزائن يختص كل منها بأمة من أمم الشرق فيها أمثلة من أسلحتها مثل ملقا ، والهند ، والصين ، واليابان ، والبلقان ، وسركاسيا ، ومراكش ، وتركيا ، من السيف والبنادق . بينها بندقية أمر نابليون بصنعها في روتردام على الخصوص لسلطان مراكش . غير كثير من البنادق التركية ، وبنادق بربرية حملوها من سرقوسة سنة 1808 ، وبنادق عربية وخنادر فارسية ، وخزانة خاصة بالأسلحة الإسلامية فيها أدراج عربية على كل منها اسم الله منقوش بالعربية .

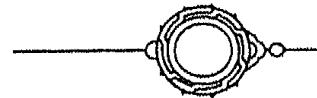
وقاعات للألبسة الحربية باختلاف الأم الآسيوية والأفريقية وأصناف الناس بينها المركبة التي نقلوا عليها عظام نابليون من جزيرة القديسة هيلانة .

أما المتحف التاريخي ففيه الأسلحة التي لها قيمة تاريخية في جملتها أربعة من سروج المماليك غنمها الفرنسيون في معركة الأهرام سنة 1798 . وسيف نابليون الأول ، وقبعته ، وطبقته ، وكبوته ، ودرع له اخترقتها رصاصة في معركة واترلو⁽¹⁾ . وفي قاعات أخرى تذكريات من حروب الجزائر «سنة 1830-1857» وحروب القرم سنة 1854 ، وحرب إيطاليا سنة 1859 ، والصين سنة 1860 ، والمكسيك سنة 1862 ، وحرب فرنسا وبروسيا سنة 1870 كل قاعة لنوع من الآثار . بعضها للثياب والبعض الآخر للأسلحة أو الرسوم أو الحلي غنمتها من حروبهما في المستعمرات بالجزائر ومراكش والصحراء والسينغال والسودان ومداغسکر والهند الصينية وتونكين والصين . بينها رايات من وادي ومجوهرات الحاج عمر من النيجر⁽²⁾ ، وسيف مرصع للإمبراطور أنام أخذ منه سنة 1885 وغير ذلك .

(1) معركة واترلو انتصر فيها الإنكليز والبروسيون على نابليون سنة 1815م .

(2) الجملة مضطربة ، وأحسب أن بعض الكلمات قد سقطت من السياق ، أو بدلت موقعها .

ضريح نابليون في قصر الأنفاليد

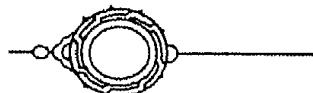


هو عبارة عن قبة علوها 107 أمتار ، تشتمل ضريح نابليون وكنистه . والقبة عليها من الخارج نقوش مذهبة يشرف عليها القادر من بعد . إذا دخلتها وجدت في وسطها ضريح نابليون ، وبين يديه هيكل الكنيسة . وإلى جانبي الضريح أضرحة جماعة من قواد لويس الرابع عشر . وبين يدي الكنيسة أربعة مذابح مستديرة يدخل إليها من قنطر سفلية صغيرة فيها أضرحة أعضاء أسرة بونابرت . ولا يستطيع الواقف عند ضريح ذلك الرجل العظيم إلا الاعتزاز والتأمل في ما أنفقه القوم في تعظيم ضريحه ، وما نصبووا حوله من الأعلام والتماثيل . إن الدهشة تستولي على المتأمل من ميل البشر إلى تعظيم الفاتحين . لا تقدر وأنت واقف بين يدي ضريح هذا النابغة إلا الصمت والذهول ؛ لما يتجلّى على المكان من الوقار كأنك ترى بونابرت واقفاً بين قواده وزرائه ، وكلهم مطروقون رهبةً وإجلالاً . وقفنا برهةً ونحن نراجع تاريخ صاحب هذا الضريح فتبين لنا إنه أكثر القادة طمعاً في السيادة وأقدارهم على القيادة وأشدّهم استهواء لرجاله ، حتى كانوا يلقون أنفسهم في النار تفانياً في طاعته ولا يبالون . قضى نابليون أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وهو يحارب ويجالد ، فقلب العروش ودوّن الممالك ونشر التبغان وقتل النفوس . وقد مضى على سقوطه قرن ، ولا يزال العلماء مختلفين في تقديره كأنّ الدهشة لا تزال آخذة بعقلهم . أما الذي نعلمه ولا خلاف فيه فهو أن نحو مليونين من الناس قتلوا في سبيل له أو عليه . وعقب تلك الحمى الاجتماعية رد فعل عاد ببعض النفع للمجتمع البشري لا نظنه يعيش تلك الخسارة .

أما الضريح فإنه قائم تحت منتصف القبة على قاعدة من الرخام في حجرة من الرخام مستديرة كالحفرة قطرها 11 متراً وعمقها ستة أمتار لا غطاء فوقها . وفي وسط الحجرة قبر نابليون يحتوي على بقاياه التي نُقلت من جزيرة القديسة هيلانة^(١) سنة

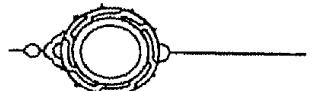
(١) جزيرة إنجليزية في جنوب الأطلسي ، غربي أنغولا ، نفي إليها نابليون الأول سنة 1815 ، وتوفي فيها

1840 وقد بُني ذلك الضريح من سنة 1842 - 1861 ، وطول القبر من الأعلى أربعة أمتار في عرض مترين ، وعلوه أربعة أمتار ونصف متر . وهو مؤلف من خمس قطع من البورفير «الرخام السماقي» من فنلاند وعليه نقوش ورسم التاج ، وأسماء الواقع الكبرى التي قاتل فيها نابليون وهي : ريفولي ، والأهرام ، ومارانكو ، واسترليتس ، وبيننا ، وفريدلاند ، وواغرام ، وموسكو . وحول الضريح تماثيل منتصبة عددها 12 ترمز عن انتصارات نابليون الكبرى . وعشر نقوش رخامية ، وست حزم فيها ستون راية بما اكتسبه من أعدائه . وفي داخل قبة الأنفاليد تماثيل كثيرة من تماثيل العظام كالقواعد وغيرهم من أصحاب بونابرت .



القصور والراسخ وغيرها

ومن قَبِيل الآثار في باريس القصور ، وهي عديدة كقصر الأليزه ، وقصر اللوفر ، وسيذكر في الكلام عن المتاحف . وكذلك قصر لوكسمبرج ، والتوكاديرو ، والباتييون ، وغيرها . ومنها المراسخ وهي أربعون مرسحاً ، وفيها الأوبرا الشهيرة . ومن قَبِيل الآثار أيضاً منازل العظماء من مشاهيرهم كمنزل أوغست كونت الفيلسوف الشهير ، ومنازل بلزانك ، وبيفون ، وكوفيه وهوغو . وفي كل منها آثار صاحبها من طاولة السرير ، ومكتب ، وقلم ، وكتاب ، وغير ذلك . ووصف كل منها يستغرق فصلاً خاصاً وليس ذلك غرضنا هنا . ومنها الميا狄ن أو الساحات العمومية ، وهي نحو ستين ساحة أشهرها ساحة الأوبرا ، وساحة الريوبلييك ولا كونكورد والتوكاديرو والكونكورد وغيرها .



متاحفها

المتحف أو مستودعات التحف والآثار لمنفعة الجمّهور من مستحدثات هذا التمدن اتخذته الأمم الراقية وسيلة لتوسيع معارف الناس ، وترقية نفوسهم . ولا نظنه بهذا المعنى يتعدى القرن الماضي . على أن الملوك والأمراء كانوا قبل ذلك يحتذون التحف

في قصورهم للتفاخر بها . ويعد من هذا القبيل متحف الملك أخشويرش ، وهيكل أفسس ، ودلفي وأثينا ، وقصور البطالسة في الإسكندرية^(١) .

متاحف الفاطميين

وكان للعرب حظ وافر من هذه المتاحف لم يقتصروا فيها على جميع التحف الشمينة ، لكنهم أضافوا إليها كثيراً من الآثار التاريخية والصناعية . نعني متاحف الفاطميين بالقاهرة منذ نحو ثمانية سنة . وكانوا يسمونها الخزائن كخزانة الجوهر ، وخزائن الأسلحة ، والفرش والأمتعة والبنود . وقد يُظنّ لأول وهلة أنها من قبيل مخازن اللوازم الحربية ونحوها . لكننا عدناها من المتاحف لما كانت تشتمل عليه من التحف التاريخية المنسوبة لاصحابها من الخلقاء أو الأمراء . كالكتوس الباذنر التي عليها اسم هارون الرشيد . وبيت هارون الرشيد الخز الأسود الذي مات فيه بطوس . وحصیر الذهب الذي يُظنّ أنه جلبته عليه بوران بنت الحسن بن سهل للمأمون وزنه 18 رطلاً . ورقعة للشطري والند أحجارها من الجوهر والذهب والفضة . وكان في خزائن الفرش مقطع من الحرير الأزرق التستري القرقوبي ، غريب الصنعة ، منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير ، كان المعز لدين الله أمر بعمله في سنة 353هـ وفيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها شبه الخريطة . وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر ، وعلى كلّ مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير وكتب في آخره «ما أمر المعز لدين الله شوقاً إلى حرم الله وإشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة والنفة عليه اثنان وعشرون ألف دينار» . وبيت أرماني أحمر منسوج بالذهب عمل للمتوكل على

(1) أخشويرش : ملك فارسي قديم (465 - 486) ق.م . أخضع مصر ، واجتاح اليونان ودمّر أثينا .

وأفسس : مدينة قديمة في آسيا الصغرى ، وهيكلها من عجائب العالم القديم .

ودلфи مدينة يونانية قديمة فيها هيكل أبولون . وأثينا من أشهر مدن اليونان .

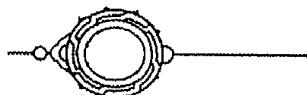
والبطالسة : سلالة يونانية حكمت مصر من سنة 323 - 30 ق.م .

الله لا مثيل له ولا قيمة صار إلى تاج الملوك . وصار إليه أيضاً بساط خسرواني دفع إليه فيه ألف دينار فامتنع عن بيعه .

وكان في خزانة السلاح درع المعز لدين الله ، وسيف الحسين بن علي ، ودرقة حمزة بن عبد المطلب ، وسيف جعفر الصادق . وكان عندهم في خزائن أخرى منديل القائم بأمر الله العباسى وغير ذلك . وناهيك بالجوهر والخليل الشمينة مما لم يُعهد له مثيل عند غيرهم . هذه كلها ذهبت بالفتن في أثناء الدولة الفاطمية . وما بقي ذهب بذهب الدولة .

على أن هذه المتاحف كانت مقفلة ، لا يدخلها غير أصحابها فلا نفع للناس منها ، وكذلك ما كان من هذا القبيل في الأجيال الوسطى بأوروبا . وأقدم من أنشأ المتاحف بأوروبا ، وفيها الآثار الصناعية والعلمية والتاريخية كوسمو الأعظم في فلورنسا بالقرن السادس عشر للميلاد . أي بعد ذهاب الدولة الفاطمية ببضعة قرون ، يليه متاحف البابليون العاشر في الفاتيكان في ذلك القرن . والإيطاليان أسبق دول أوروبا إلى هذه المنقبة مثل سبقهم إلى إنشاء المدارس العلمية ، وهي أيضاً مما اقتبسوه عن العرب . واقتدت بهم سائر أمّ أوروبا . فأخذ الأمراء والملوك يجمعون التحف والمصنوعات ونحوها في خزائن بلا ترتيب ولا غرض معين غير التفاخر بها . ولم تتحول الغاية من جمعها إلى منفعة الجمهور إلا في القرن الماضي . وفي باريس من هذه المتاحف عدد كبير سنائي على وصف أهمها وبيان ما شاهدناه فيها مما يهم القراء .

متاحف باريس

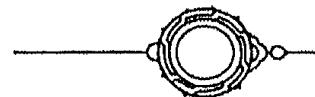


في باريس نحو أربعين متاحفاً يمكن جمعها تحت عدة رؤوس حسب الغرض منها ، أو ما تحويه من الآثار أو التحف . منها متاحف عامة فيها كل أنواع التحف من المصنوعات على اختلاف فنونها ومن الآثار التاريخية والفنون الجميلة وغيرها ، أهمها متاحف اللوفر . منها متاحف فنية يراد بها تنسيط الفنون الجميلة كالرسم والحرف والتصوير مثل متاحف لوكسنبرج . ومتاحف حربية لعرض الأسلحة ونحوها كالمتحف العسكري في قصر الأنفاليد وقد تقدم ذكره . ومتاحف علمية أو هي معارض لعرض

الجاميع الجيولوجية والتشريحية والحيوانية والنباتية ونحوها . ومتاحف دينية يراد بها الاحتفاظ بالأثار الدينية الكناشية كمتحف جيمي . ومتاحف تاريخية وغيرها . غير المتاحف الخصوصية التي تقدمت الإشارة إليها بين الأثار مما ينسب إلى أصحابه من المشاهير في منازلهم كمنزل هوغو وأوغست كونت وغيرهما . ولنبذأ بوصف ما شاهدناه في أهم متاحف باريس .

متاحف اللوفر

تاريخه:

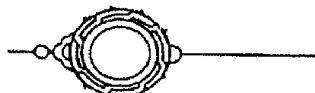


هو أفحى متاحف باريس وأهمها من حيث بناؤه وما حواه من التحف . ولإنشائه تاريخ يطول بنا إيراده ، وإنما يقال بالإجمال إنَّ اسمه مشتق من اسم غابة كانت هناك لصيد الذئاب اسمها لوبار واسم الذئب في لسانهم «لوب» فسمي المكان «لوبرا» ثم لوفر . ويقال إنَّ أصل ذلك البناء قلعة بناها فيليب أوغست في أوائل القرن الثالث عشر في جملة سور باريس . ثم اتخذها شارل الخامس مستودعاً لذخائمه وكتبه وجعلها منزلًا لائقاً بالملوك . لكن ذلك البناء لم يبقَ منه شيء ، وإنما بقي ما بناه فرنسوا الأول سنة 1546 واتصل العمل بعده على عهد هنري الثاني «1547-1559» ومن خلفه ، وفي جملتهم كاترين مديتشي أرملة هنري المذكور وأولادها . وهنري الرابع وغيرهم . ولم يتم بناء هذا القصر إلا في زمن نابليون الأول فإنه أمر سنة 1805 بترميمه كله وأتم ذلك نابليون الثالث . فاتسع القصر اتساعاً لا يضاهيه فيه قصر من قصور العالم فإن مساحته التي عليها البناء نحو 198000 متر مربع أي ثلاثة أضعاف مساحة قصر الفاتيكان . ويقسم إلى قسمين رئيسين اللوفر القديم ، واللوفر الحديث منه جزء تشغله نظارة المالية . وفي ساحة القصر حدائق نصبوا التماثيل في أركانها - فيبدأ الزائر بهتم بذخائر اللوفر قبل دخوله فضلاً عما يشاهده من فخامة البناء وإتقان صنعه .

أما الذخائر والتحف التي يتضمنها ذلك القصر فهي مفرقة في طبقاته حسب أنواعها ومواضيعها . ففي الطبقة الأرضية الآثار الرخامية ونحوها بما يثقل حمله . ومن

جملتها الآثار الآسيوية والمصرية ومنحوتات الأجيال الوسطى وأوائل النهضة إلى هذا العصر . وفي الطبقة الأولى فوق الأرضية معارض الصور الزيتية وسائير الفنون الجميلة من منحوتات ومسبوّكات ومن سائر المصنوعات الشمينة قديمةً وحديثة . وفي الطبقة الثانية معرض التصوير أيضاً ومعرض البحرية . وفي الأجنحة وغيرها معروضات أخرى .

أما تاريخ اتخاذ قصر اللوفر متحفًا ، فيرجع إلى القرن السادس عشر بعد نهضة التمدن الحديث بدأ الملوك بوضع بعض التحف أو المصنوعات الجميلة وأكثراها من إيطاليا . ولكنه لم يجتمع فيه ما يستحق الذكر إلا في زمن نابليون الأول وقد جاء جنده بالغنائم من إيطاليا وغيرها وفيها الذخائر الكثيرة أضيفت إلى ذلك المتحف . وما زالت تجتمع التحف فيه حتى صار إلى ما هو عليه الآن ، وبعد من أعظم متحاف العالم . وهو لسعته لو أراد الإنسان أن يطوف غرفه ماشياً لاكتفى بذلك ساعتين على الأقل فكيف لدرس ما فيه أو وصفه؟ لذلك فإننا سنقتصر على ما يهم القراء منه .

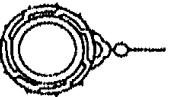


المنحوتات

ففي متحف الرخاميات القديمة في الطبقة الأرضية من البناء 3000 قطعة مفرقة في قاعات عديدة نذكر منها على الخصوص قاعة الآثار الأفريقية وفيها آثار شمالي أفريقيا : مصر وقرطاجة وتونس والجزائر . وقاعة الآثار الرومانية واليونانية على اختلاف الأعصر والمواضيع من تماثيل الأشخاص والواقع صناعتها تدهش المتأمل . منها تمثال شاب جالس وهو عاري ينزع شوكة من أحэмص قدميه ، ملامحه واضحة لدرجة غريبة . ومنحوتات تمثل عادات الرومان واليونان من جملتها رجل عاد من الصيد فنزع رداءه ، وعلقه على غصن شجرة ، وعلق صيده بجانبه وأخذ يلاعب كلابه بأربن يوهمها أنه يدفعه إليها ثم يرجعه . وتمثال آخر لرجل أخذ يلبس نعاله وهو يشد سيورها . غير عادات الرقص والموسيقى وقائل العظماء ، أو الرموز الدينية أو الميثولوجية بينها تمثال فينوس ميلو ، ويعودونه أتقن تمثيل اللوفر ، وقد تغزل به الشعراء والكتاب منذ القدم . وأعجبوا بإتقان صنعه رغم نقص ذراعيه . وهو تمثال الزهرة

حملوه من ميلوس . وفي بعض القاعات تمثال نصفي لإسكندر المقدوني الكبير ، ورأس هوميروس ، وتمثال أبولون وديانا وباخوس ورمز عن التبشير بدieux الصنع .

المنحوتات الشرقية



وكل الأثار الآسيوية منها قاعة لأشور فيها الشوران الآشوريان الضخميان مما ينصبه الآشوريون ببيان الهياكل كما ينصب المصريون أبو الهول . والثور الآشوري رأسه رأس إنسان رمز عن العقل وله قوائم الثور وأجنحة النسر دلالة على القوة . وهناك كثير من القراميد الآشورية عليها الكتابة المسماوية باللغة الآشورية .

ومن جملة تلك الأثار أناض بلاد السوس ، وفي جملتها مسلة حمورابي الشهيرة وعليها شريعته منقوشة بالحرف المسماوي . وقد ذكرنا ترجمتها في السنة 13 من الهلال ، وهي أقدم ما وصلنا من الشرائع المدونة «نحو سنة 2250 ق م» ومسلة نرام سين ملك أكاد «سنة 3750 ق م» وعليها صورة ذلك الملك يطارد أعداؤه . والملك منيشتوسو ومسلته «نحو 4000 ق م» وغير ذلك .

وفي قاعة الأثار الفينيقية عدة نواويس⁽¹⁾ فينيقية من الرخام الأسود والأبيض تشبه النواويس المصرية - بينها ناووس أشمو ناصر ملك صيدا عليه كتابة فينيقية هي أطول ما وجدوه من الكتابة على النواويس . وقاعة للأثار الفينيقية القبرسية فيها شيء من المصنوعات القديمة كالتماثيل والأعمدة والأقداح . وقاعة الأثار الإسرائيلية استلففت انتباها فيها على الخصوص مسلة ميشا ملك مواب في القرن التاسع قبل الميلاد وعليها كتابة موا比ة تصف حروب هذا الملك مع اليهود . وهي أقدم الأثار الكتابية الأبجدية التي وقفوا عليها حتى الآن .

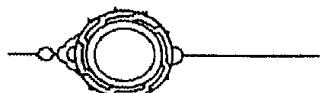
وقاعة الأثار المصرية ويعدها ما فيها من الأثار المصرية من أهم ما في المتحف الأوروبي من نوعها . في جملتها تمثال أبو الهول العظيم الحجم يستلفت الانتباه عند مدخل القاعة . وهناك ضريح تاهو من صنع العائلة الخامسة والعشرين المصرية وهو

(1) جمع ناووس وهو حجر منقرن تجعل فيه جثة الميت .

أتقن ما صُنِع في ذلك العصر . ومثال سيتي الثاني وسبك حوت . ومثال «نسخة» لمنطقة الأبراج المصرية التي وجدها في دندرة . ومثال رعمسيس الثاني . وقاعة خاصة لمكتشفات ماريت باشا في السرايبيوم بمصر ، ومثال العجل أبيس .

ومتحف القرون الوسطى ، وبده النهضة الأخيرة فيه من التماشيل والمنحوتات المتقدمة ما يدهش المتأمل أكثرها تماثيل نصوانية . منها قاعة ميشال آنج النحات الإيطالي الشهير ، بينها تمثال رخامي لأميرين مغلولين يقال لهما : العبدان صنعهما ميشال آنج في أوائل القرن السادس عشر ليوضعوا على ضريح البابا جول الثاني في رومية يريد أن يمثل بهما الفضيلة مقيدة . ومثال شارل الخامس ملك فرنسا «توفي سنة 1380» ومثال امرأته جاندي بوربون ، وغير ذلك من التماشيل المتقدمة . وهناك قاعات عديدة للمنحوتات الحديثة يضيق المقام عن ذكرها فضلاً عن وصفها .

معارض الصور



وفي الطبقة الأولى من اللوفر معارض الصور الزيتية ، وغيرها مما يستحيل الإفاضة فيه . ولا يقدر الكاتب على وصف ما في صوره من دقة الصناع مالم ينقل الصور نفسها وهي تزيد على 3000 صورة يختلف حجمها من بضعة أمتار طولاً إلى أقل من متر . وكلّها لمشاهير المصورين على اختلاف الأعصر والبلاد والأم . ويُعد هذا المعرض أغني معرض من نوعه في متاحف العالم وأهمها . وفيه طائفة من أتقن ما صوره الإيطاليون ، والهولنديون ، والفرنساويون ، وغيرهم . ومجموعة مدهشة من الصور الزيتية على القماش . ولصور رفائيل مجموعة حسنة مرتبة حسب تدرجه في إتقان هذه الصناعة وفي جملتها صورة القديس جورجيوس يقتل التنين وصورة الملائكة ميخائيل وغيرهما .

ومن صور المصورين الأسبانيين شيء كثير نُقلت من إشبيلية ومدريد فيها صورة الطفل مرغريت رسم فيلاسكس . وهناك صور من أحسن ما صنعه الإسبانيون والهولنديون ولا سيما جان فاندريك الشهير ، ورامبران ، وفرنسال . ومن المعروضات الألمانية لهولبين وغيره . وللانكليلز في هذا المعرض 35 صورة بعضها لويلس ،

وكونستابل وبونتن ، ورينولد وغيرهم ، وغير ذلك مما يعجز القلم عن وصفه . ونعرف بعجزنا عن وصف ما ألمّ بنا من الدهشة عند وقوفنا أمام هذه المصنوعات البديةعة . ولم يدهشنا إتقانها أقل مما أدهشتنا كثرتها . فإن قاعة واحدة منها طولها 375 متراً جدرانها مغطاة باصور الزيتية المتفاوتة الأقدار والأشكال ، متزاحمة صفوأً بعضها فوق بعض . وفي جملة هذه الصور صورة جوكوندة الشهيرة التي سُرقت بالأمس وشاع أمرها .

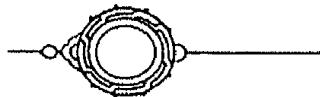
وبالإجمال فإن تلك الصور بعضها يمثل المشاهير من الرجال أو النساء . والبعض الآخر يمثل العادات كمجلس طرب بين أهل القرى في القرن السابع عشر . ولادة أمير . وفتاة عائدة من المدرسة . ماتم دفن . وبيع اللحوم . أو الحوادث التاريخية كموت سنيك . وموت شرويل . وضرب موسى الصخرة بعصاه . والعذارى الثلاث . وصلب المسيح . وتقليل الفردوس . ومحاكمة دانيال . أو المناظر الطبيعية كتأثير الثلوج في الطبيعة . ومقاتلة الذئاب . وأسد هاجم على جواد . وصورة الفجر . أو الميثولوجيا مثل هركيل ، وفيتوس ، وأدونيس . ومنها صورة طولها عدة أمتار تغطي جدران الغرفة كلها . ومن أسماء المصورين روين ، وفراغونار ، ورينول ، وماطيه وريغو ، وروبستي ودلتيشورتو ، وجورданو ، وشمباتي ، وسنيدر ، ولارجيليار ، وفان لو ، وفاندريك ، ورافائيل ، وواتو ، وكوريت وماير وغيرهم كثيرون .

والرسوم التي تمثل العادات الشرقية في هذا المعرض قليلة منها صورة تمثل استقبال سفير بندقي جاء القاهرة بملابس الرسمية في القرن السادس عشر رسمها بليني طولها ثلاثة أمتار بمترین .

وهناك قاعات عديدة كل منها تختص بمحض شهير جمعت تصويراته معًا ، وتسمى القاعة باسمه مثل قاعة فاندريك ، وقاعة روينسن ، وقاعة فرانس هال ، وغيرهم . وغيرها من القاعات المنسوبة إلى البلاد كقاعة الإيطاليين ، وقاعة الهولنديين ، والفرنساويين . والمراد بها بيان ما تمتاز به كل أمة من التفنن بالتصوير لفائدة طلاب هذه الصناعة من التلاميذ أو الغواة ،⁽¹⁾ وللفن الفرنسي عدد قاعات حسب الأعصر كل قرن على

(1) يريد بالغواة : الهوا . والكلمة غير فصيحة .

حدة إلى القرن التاسع عشر .



معارض المصوغات والمجوهرات

وفي هذه الطبقة من اللوفر قاعة كبيرة يسمونها قاعة أبولون ، هي أجمل قاعات المتحف من حيث بناؤها وزخرفها . وقد وضعوا حول جدرانها أجمل الأثار من زمن لويس الرابع عشر . وأقاموا في وسطها مواقف أو خزانة «فترينات» وضعوا فيها من المجوهرات والمصوغات أثمن ما في أوروبا منها إبريق من اليشب الأسمر⁽¹⁾ صنع القرن السادس عشر . وإبريق أو مزهريه من اليشب الشرقي عليه ميناء في غاية الجمال . وإبريق من اليشب . وفي فترينة أخرى مجموعة مصوغات من عصر النهضة الإيطالية ، وجواهر مصوغة في شكل قبة . وكؤوس من الجماشب⁽²⁾ عليها ميناء أو بلا ميناء . ومصوغات من صنع فرنسا وإيطاليا . وأدوات من العصر القوطي بينها كؤوس من البلور وأطباق من الذهب منزلة بالميناء صنع البندقية . وعلبه فيها ذراع شارلaman صنع ألمانيا في القرن الثاني عشر . وكأس للقديس لويس عربي الشكل عليه نقوش دينية ، ويعرف بكأس عماد القديس لويس . وغير ذلك من الأدوات المقدسة والكنائسية يطول بنا ذكرها نكتفي منها بالمجوهرات الملكية . وأول ما استلفت نظرنا منها الملاسة تسمى «ريجان» هي أجمل الملاسة معروفة وزنها 136 قيراطاً ، ابتعادها فيليب أورليان سنة 1717 . وتقدر قيمتها اليوم بخمسة عشر مليون فرنك . وبجانبها الملاسة تسمى مازارين ، لونها هورتنسي ، بينما ياقوته كبيرة اسمها «كوت دي بريطاني» والتي يسار عقد من اللؤلؤ أمامه سيف شارل العاشر مرصع بالجواهر الثمينة على غمده الحرف الأول من اسم نابليون . وهناك مثال لتاج لويس الخامس عشر عليه أمثلة من مجواهراته . وبجانبه تاج نابليون الأول صنع سنة 1804 ، تقليداً لتاج شارلaman أحجاره

(1) اليشب : حجر كرم .

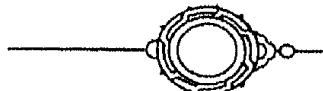
(2) الجماشب : لم أجده لها ذكرأ وأحسبه تصحيحاً ولعله الجمَّست : وهو مصنوع من الحجارة الكربية .

قديمة . وبينهما لوح تاريخي للذكرى صلح تيشن سنة 1779 صنع ألمانيا . وأمامه ساعة أمير الجزائر أخذت منه سنة 1830 ، وبروش لكاثرين دي مدิتشي من الألماس . وقس على ذلك عشرات من القطع الثمينة المصوحة بالذهب أو الفضة والمرصعة بأنواع الحجارة الكريمة من قديم وحديث صنع فرنسا ، أو إسبانيا أو غيرهما من القرن الحادى عشر فما بعده بينها أوصمة ومداليونات مختلفة الأشكال .

وبحانبها قاعة اسمها قاعة المصوغات فيها المصوغات القديمة قبل النهضة الأخيرة «انتييكا» «بينها خوذة غالبية من الحديد الموسى بالمیناء من زمن الرومان . وعقد أتروسكى ، وفضيات وجدت في بوسكوريا قرب هيباي هي 24 قطعة من الصناعة اليونانية الإسكندرية . بعضها لا يزال كأنه صنع بالأمس ، وعدد كبير من الخواتم اليونانية والرومانية والأقراط الأتروسكية وقطع مصوحة وجدتها⁽¹⁾ في أزمير وغير ذلك . وفي قاعة أخرى صورة زيتية كبيرة تمثل بونابرت في زيارته المطعونين ببابا «سوريا»

وهناك قاعة خاصة بمصنوعات قديمة من البرونز وجدوها في أنقاض اليونان وغيرها من الأمم الأوربية القديمة ، وقاعات كل منها خاصة بملك من ملوك فرنسا فيها رياشه وأدواته . إحداها للouis الرابع عشر ، وأخرى للخامس عشر ، فالسادس عشر ، وكل منها تحوى ما يستغرق وصفه عدة صفحات . ومعرض للرسوم فيه 50000 رسم من أقدار مختلفة وضروب متنوعة . وأخر لمصنوعات الأجيال الوسطى ، وقاعة لتحف إهداها روتشيلد للوفر قيمتها بعشرين مليون فرنك وتعرف باسمه .

مصنوعات شرقية



وقاعة خاصة بالقيشاني الشرقي فيها قطع صنع دمشق في القرن السادس عشر ، وأخرى من القاهرة ، وعلبة عليها نقش باللغة العربية يقرأ «المغيرة» يظن أنه ابن عبد الرحمن الناصر صاحب قرطبة نحو سنة 967 م ومصابيح للمساجد . وكأس عليه

(1) كما وردت ، وأحسبها : وجدوها .

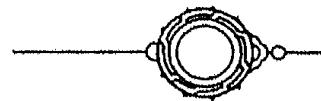
اسم أبو⁽¹⁾ المظفر يوسف الأيوبي سلطان حلب سنة 1236-1260 م ومعرض التحف الآسيوية منها قاعة السوس ، وبلاط الكلدان ، وبابل وفينيقية ، أهم ما فيها مسلة فينيقية لإله سلمان ، وأخرى آرامية تعرف ب المسلة تيماء ببلاد العرب . وأمثلة كثيرة من زجاج فينيقي ، ومصوغات فارسية قديمة ، وعقود من الذهب وقطع نقود وجدت في ضريح من البرونز من القرن الرابع قبل الميلاد . ونقوش بيزانتية ، ومصوغات سلوقية ، وتماثيل آشورية من عصر سرجون الأول بينها خريطة مجسمة لنوموليس في بلاد السوس «سوزيانا» مثلت فيها الأودية والجبال . وقاعة أخرى للتحف الفارسية القديمة ، وفيها قطع بنائية من زمن ارتاكزرسيس . ومعارض لأدوات الحداد والمآتم المصرية وللأله المصرية يراد بها الميثولوجيا المصرية . ومعارض للصناعة القديمة في مالك التمدن القديم ولا سيما بلاد اليونان .

وفي قصر اللوفر جناح خاص بمعرضات الشرق الأقصى مما وهبه الفضلاء لخدمة الجمهور ، وكل قاعة باسم مهديها بعضه للصين أو اليابان أو فارس ، ولا سيما السوس «سوزيانا» مما يطول بنا شرحه . وشاهدنا عند مدخل اللوفر قاعة فيها قطع من جدران فينيقية مصورة بالفسيفساء عشر عليها رينان سنة 1863 في كنيسة القديس خريستوفورس قرب صور «سوريا» عليها رسوم حيوانات من أرانب وطيور ، وأسود ، وبقر وأسماك . منها قطعة على الأرض طولها 12 متراً . ومثلها سبع قطع تختلف حجماً ورسماً . وضريح من رخام لكاهن قوطاجي وقطع عليها نقوش حملت من قرطاجنة وغيرها .

وفي اللوفر من المصنوعات الجميلة المدهشة الأبسطة ، أو الستائر «غوبلين» المنسوجة بالصور تحمل الجدران من القرن الخامس عشر فما بعده وهي ثمينة وممثل صوراً تاريخية .

(1) صوابها : أبي .

المكتبة الأهلية



المكتبة الأهلية الفرنساوية من أهم مكاتب العالم . ولا نريد الإفاضة في وصفها هنا وإنما أردنا الإشارة إليها إجمالاً لذكر ما شاهدناه في معرض الأوسمة بجانبها . ببناء المكتبة عظيم فخيم لا يزال العمل جارياً في توسعته ليشغل نحو 16500 متر مربع . ويقال في تاريخ خزن الكتب فيها إن الكرولنجلين كانوا يعتنون بجمع الكتب الخطية وكان للويس التاسع المتوفى سنة 1370 مكتبة خصوصية . وكذلك شارل الخامس ، ولويس الثاني عشر . لكن هذا الأخير يعد مؤسساً للمكتبة التي نحن في صددها في أوائل القرن السادس عشر . واستغل خلفاؤه في توسيعها وحشد الكتب ، وغير الكتب فيها حتى صارت إلى ما هي عليه الآن . وهي أربعة أقسام كبرى : «1»- المطبوعات والخرائط «2»- المسودات الخطية «3»- الرسوم «4»- الأوسمة والتحف القديمة . وفيها قاعة للمطالعة واسعة جداً . ففي قسم الرسوم نحو 2500000 قطعة محفوظة في نحو 14500 مجلد و 4000 خريطة . وفي قسم المسودات الخطية 102000 كتاب .

وعلى بعض المسودات العربية في هذه المكتبة صور مرسومة من القرون الوسطى ، منها صورة على مسودة قديمة تمثل فرسان من العرب على أفراسمهم يستخدمون النار اليونانية . وفي المكتبة معرض للمخطوطات والمطبوعات النادرة بينها خطوط العلماء المشاهير وتواقيعهم بأيديهم منهم رابلي ، وفيلون ، وراسين ، وروسو .

معرض الأوسمة



هو من جملة بناء المكتبة وله باب خاص من الخارج . سمي كذلك لما فيه من ضروب الأوسمة والنياشين يزيد عددها على 150000 قطعة . ولكن فيه تحفًا كثيرة هامة بعضها مصري منها منطقة البروج التي عثروا عليها في دندرة⁽¹⁾ ويرجع تاريخها

(1) دندرة مرّ ذكرها سابقاً وهي موقع أثري في صعيد مصر على النيل شمالي الكرنك .

إلى العصر الروماني . ومنها خزائن فيها تحف ثمينة تاريخية مثل ترس شيببيون بما عليه من النقوش الميثولوجية .



أثran عربیان

وأهم ما شاهدناه هناك مما يهم القراء أثran عربیان يتوقف كلّ عربي إلى رؤيتهما .
أولاً : سيف أبي عبد الله محمد بن علي صاحب غرناطة آخر ملوك العرب في الاندلس الذي غلبه الأسبان في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد «سنة 897هـ» موضوع في خزانة مع تحف أخرى ، فوقفنا عنده برهة وراجعنا تاريخ صاحبه وكيف انقضت دولة العرب من أوربا بانقضائه .

ثانياً : هدية هارون الرشيد لشارلمان ملك فرنسا . من المشهور على أقلام الكتاب نقلأً عن كتبة الإفرنج أنَّ الرشيد أهدى شارلمان المذكور ساعة دقّاقة هي أقدم ساعة في أوربا مع هدايا أخرى . ولم نجد ذكرًا لهذه الهدية في كتب العرب القدماء ، وكنا نتوقع أن نعثر عليها في متاحف أوربا . وقد بحثنا بحثاً دقيقاً في المتاحف التي ترددنا إليها في الصيف الماضي بفرنسا وإنكلترا وسويسرا ، فلم نقف لهذه الساعة على أثر ولا ندري إذا كانت موجودة في بعض المتاحف الأخرى .

لكننا عثرنا في متحف الأوسمة الذي نحن في صدده على حجر شطرينج كبير الحجم يمثل فيلاً عليه راكب . وقد عرفوه بأنه بقية قطعة شطرينج أهدتها هارون الرشيد إلى شارلمان .



متاحف لو كسنبرج

هو متحف في قصر لو كسنبرج والقصر من أفخم قصور باريس . بني بأمر ماري مديتشي أرملاة هنري الرابع في أوائل القرن السابع عشر ، واجهته الرئيسية طولها 90 متراً . وقد رم مراراً وخصوصاً سنة 1804 بأمر نابليون الأول . وجعله مقراً لمجلس الشيوخ ، وجعله غيره لغيرهم ، لكن نابليون الثالث أعاده لهم . وأقام هذا القصر

كثيرون من الأمراء والأميرات ، وخصص جانبٌ منه لعرض التحف الفنية كما عرضت تحف الموقر لكن بعض الزائرين يزور القصر لحضور جلسات المجلس بإذن خاص . وفي قاعة الاجتماع 300 كرسي للشيخوخ و800 للحضور .

ولما يهمنا من هذا المتحف ما حواه من المنتوجات الفنية حفراً أو نحتاً أو تصويراً . وتقسم تحفه إلى التماثيل والصور . وفيه طائفة حسنة من السجاد أو الأستار المضورة بالنسيج مما يدهش الناظر . ومن العبث أن نحاول وصف ما هنالك لأسباب تقدم بيانها ، وإنما نكتفي بالإشارة إلى بعض ما يهم القراء معرفة وجوده .

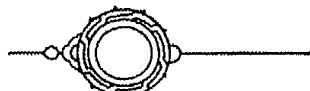
فمن المنتوجات ما يمثل بعض الحوادث التاريخية كتمثيل هاجر وإسماعيل صُنع النحات وايزلين كما يتوقع أن يكون حالهما من وصف التوراة لهما . وقتل قابيل لأنبيه هابيل . وتماثيل عظماء اليونان والرومان وغيرهم . منها تمثال داود النبي عاريًّا وفي يده سيف . وقد استوقف خاطرنا تمثال امرأة عربية تطرز على المنسج . ومنها طائفة تمثل الفضائل أو الأخلاق أو العواطف كالحرية والفرح والتقوى والحنو والحزن والتالم والخوف والسداجة وال默ك والخبث . أو تمثل بعض العادات منها : فرس عربي وصاحبته بجانبه . وزنجي سوداني عليه عمامة وشملة . وجهه أسود أمّا العمامة فمن الرخام المعرق اللون يوهم الناظر أنه قماش منسوج

وعلى كل تمثال اسم صانعه وفيهم نخبة من النحاتين المعاصرين منهم : مولين ، وديبوا ، ومارسيه ، وكورديه ، وايزلين ، ورودين ، ودلا بلانش ، وادراك ولا كورنيه وبويش ، وبدارسو ، وهانو ، وغيرهم .

أما الصور فإنها تشغل عدة قاعات جدرانها مكسوة بالصور على اختلاف أقدارها ، مما يزيد طوله على ستة أمتار إلى أقل من نصف متر . ومن الصور الكبرى صورة في صدر القاعة الأولى تمثل قايين مهاجرًا مع أهله ، وقد قوضوا خيامهم وساقوها أنعمتهم باللونها وأشكالها . وصورة واقعة تاريخية في مراكش فاز فيها السلطان ، وساق الأعداء إليه أمواتاً وأحياء . وصورة أيوب يتضرع لله . وصورة أليعاذر قائماً من الموت . وغير ذلك ما يعد بالثبات وكل صورة يقتضي لوصفها عدة صفحات ، وكلها لأشهر المصورين من معظم الأمم . وفي جملتهم ليفي ، وبغورو ، وويرتس ، وديلوني ، وكورمون صاحب صورة قايين وهابيل ، وجرفكس ، وريبو ، وبونا صاحب صورة داود .

وبازياتس ، ورولنسن ، وكونستان صاحب صورة موقعة مراكش . وهير ، وجيروم ،
وغيرهم .

أما السجاجيد أو الستائر المعروفة عندهم باسم غوبلين فإنها عديدة ، أكثرها
مبسوط على جدران قاعات المتحف ، ييد عددها على بضع عشرة أستار ، قد رسموا
عليها بالنسيج صوراً تاريخية ، أو مجالس سياسية . في جملتها صورة لويس الرابع
عشر في مجلسه ، ونحو ذلك . وهي من صنع القرون المتأخرة .



متحف كليني

هو في قصر أشبه بالأديار منه بالقصور ، بُني في الأجيال الأولى للنصرانية يرجع
في أصل بنائه إلى أواخر القرن الثالث للميلاد ، ولم يبقَ من هذا البناء إلا غرف
الحمام . ثم صار في القرن الرابع عشر تابعاً لدير كليني ، فبني الرهبان على أنقاضه
مسكناً لهم على الطرز القوطي . تم بناؤه سنة 1490 على يد الرئيس جاك دامبواز ،
وقد حافظ على شكله . وسكنته ماري ملكة إنكلترا ثالثة أزواج لويس الثاني عشر ،
وهي التي تسمى الملكة البيضاء وغيرها . ولما حدثت الثورة الفرنسية أصبح البناء ملك
الأمة . وفي سنة 1833 جعله العالم الأثري اسكندر سومرار مستودعاً لتحفه وأكثرها
من مصنوعات الأجيال الوسطى ، وأوائل النهضة ثم صار بعد موته للحكومة .

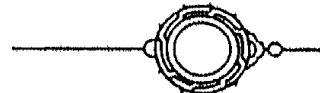
والتحف المشار إليها من أجمل المصنوعات القديمة من كل نوع يزيد عددها على
11000 قطعة فيها كثير من الأدوات الكنائسية والمنسوجات الدقيقة ، بينها ضروب
من التطريز والتخريم بعضه يشبه كثيراً ما يستحدثه أصحاب الأزياء الجديدة في
باريس . ولعل هؤلاء قبل أن يستبطوا زياً جديداً من المنسوجات أو المطرزات يطلعون
على ما في هذا المتحف وأمثاله من الأزياء القديمة ، ويستخرجون من مجموعها زياً
جديداً . وما شاهدناه من المتحف ستارة «غوبلين» عليها صورة أصلها لرافائيل .

وفيه قاعة للقيشاني وأشباهه تدهش المتأمل أكثر ما فيها من فرنسا وأسبانيا
وإيطاليا . وفيها خزانة ملؤها بتصنيعات البندقية من الزجاج والأطباق ، عليها رسوم
بديعة . رأينا على بعضها صورة شمشون ودلالة . وعلى طبق آخر رسم يونون ولزيسيس .

وعلى غيره ولادة بانخوس . وقيشاني إسباني عربي من القرن الرابع عشر فما بعده .
وغيره صنع رودوس .

وقاعة الأدوات اليهودية فيها المفروشات والمسودات والنقوص والمصوغات . وطاقة
حسنة من المصنوعات العاجية والبرونزية . ورأينا من المصوغات تسعه تيجان من
الذهب عثروا عليها بين سنة 1858 و1860 قرب طليطلة بإسبانيا ، أكبرها مرصع
باللؤلؤ والزفير الشرقي وغيرهما من الحجارة الكريمة مرتبة بشكل حروف إفرنجية ترمز
عن اسم ركسيفونتس من ملوك الوسيقوط « من سنة 649-672 ». ورقة شطرنج
حجاراتها من البلوط المعدني صنع ألمانيا في القرن الخامس عشر . وهناك طائفة من
أنواع الإسطرلاب والبواصلة وال ساعات من القرن السادس عشر والسابع عشر .

متحف جريifen



هو متحف خاص من نوعه . فيه تماثيل من الشمع لمشاهير الرجال المعاصرين
وغلائم⁽¹⁾ بملابسهم وأزيائهم . وقد أتقن صنعها حتى يصعب على الزائر أن يميز بين
التماثيل المنصوبة منها والوقف من الزائرين . وفي جملة التماثيل المشار إليها طائفة
من رجال فرنسا وغيرهم مثل رشفور كوكلين وجول كلارسي ، ومورييس بارس ،
وكليمانسو ، وغيرهم . بين وقوف على افراد أو أزواج وجماعات كأنهم يتحدثون ، أو
يلعبون وقد مثلوا مواقف تاريخية مشهورة مثل : عائلة لويس السادس عشر لما بلغها
خبر الثورة وقد دخل الغوغاء عليهم . وروبيير ، ودانتون ، وديمولين ، وبيلي . ولافت .
ولويس السادس عشر في سجنه . ومحكمة الثورة الفرنساوية وفيها القضاة . ومدام
رولان ساعة المحاكمة . لا ينقص أحد منها غير النطق والحركة ، وميرابو في موقف
الخطابة . والقبض على شارلوط كوردي . ونابليون وجوزفين يسمعان الموسيقى . وهما

(1) كذا وردت ، ولعلها "وعائلاتهم" .

في موقف آخر مع مداموزيل اوغيه . ولويس نابليون . ومرات مع جمهور من السيدات . وكل جماعة في غرفة فيها الرياش والألبسة والأدوات كما كانت في وقت الحادثة ما يدهش الناظرين .

وفي الطبقة السفلية أمكنة كالدهاليز والسراديب مثلوا بها أحوال النصرانية في أوائل أحوالها يوم كان المسيحيون يتكتّمون بصلواتهم وطقوسهم ، وما كانوا يقاسونه من العذاب والاضطهاد . نقلنا منها صورة مأتم والقوم وقف حول الميت يصلون عليه ويغافون الخروج به . لا يقدر الزائر لتلك الأماكن إلا التخشّع لما يظهر في ملامح أولئك المسيحيين من التقوى والخشوع وصدق الاعتقاد .

ورأينا في جملة التماضيل تمثال جان دارك على جوادها بأسلحتها ، وبيدها العلم وقد وقف بجانبها حارسان من رجالها . ومجلس البابا بيروس العاشر في كنيسة سكستين وقد جلس على عرشه وبين يديه الكردينالية بين جالس وواقف وجاث . وبالمجملة فإن متحف غريفن هذا من مدهشات الصناعة . وهناك متاحف أخرى في باريس يضيق المكان عن ذكرها نشير منها إلى متحف جيمي وهو من المتاحف الدينية ، وفيه الآثار الدينية على اختلاف أشكالها باختلاف الأمم القديمة والحديثة .

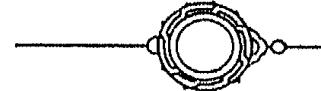
متاحفها في ضواحي باريس فرسال

هي بلدة على نحو 20 كيلومتراً من باريس ، فيها قصر لويس الرابع عشر ، ومن خلفه من ملوك فرنسا . سكانها نحو 50000 نفس وفيها الشوارع المنتظمة ، والساحات الفسيحة ، والقصور الفخيمة . وقد بنيت في الأصل على بقعة رملية لا ماء فيها وإنما رغب لويس المذكور في بنائها لصفاء جوها ونقاوة هوائتها . فأنفق في إنشاء قصره وجلب الماء إليها مالاً طائلاً . وأحصوا عدد الذين اشتغلوا في ذلك فبلغوا 36000 رجل و6000 حصان . وبلغت النفقة عليها في أيام لويس الرابع عشر ما يُقدّر بنحو خمسمئة مليون فرنك . غير الذين سخروا في العمل بلا أجرة . ولعل هذا الملك

السعيد اقتدى بما فعله عبد الرحمن الناصر صاحب قرطبة ببناء الزهراء ، أو المنصور بن أبي عامر ببناء الراحلة . أو ابن الأحمر ببناء الحمراء في غرناطة . وقدر نفقات الزهراء بنحو 50000000 دينار ، أي نحو ما أنفقه لويس هذا على قصره في فرساي . ولكن عدد المشتغلين في بناء الزهراء كانوا 100000 و 1500 دابة . على أن الزهراء امتحن الآن وعفت آثارها . وأما فرساي فلا تزال باقية والفرنساويون يبالغون بالاحتفاظ بها .

واتخذ لويس المذكور فرساي مسكنًا له سنة 1682 ، ومنها كان يصدر الأوامر لحكومته أو جنده . وفيها تزوج مدام دي منتتون سنة 1682 بعد وفاة ماري تريز ، وصارت فرساي بعد ذلك مقراً للملوك فرنسا . وفيها عقدت أكثر الاجتماعات السياسية الهامة في أثناء القرنين الماضيين ، قبل الثورة وبعدها وتقلبت على أحوال عسر ويسر . وفيها أمضيت معااهدة سنة 1783 بين فرنسا وإنكلترا علىثر استقلال أمريكا . وفيها نزلولييم الأول إمبراطور ألمانيا من 5 أكتوبر سنة 1770 إلى 6 مارس سنة 1871 بعد تغّيّبه على الفرنساويين وتُوج فيها إمبراطوراً على الألمان .

متاحف فرساي



هو في قصر فرساي ، مسكن لويس الرابع عشر نفسه . والقصر وحده بما يكتنفه من الحوادث التاريخية يعد من أهم التحف ولبنائه تاريخ طويل . وهو كالبلد الكبير بما فيه من القاعات والغرف والدهاليز والأروقة والمراسخ والصالصات . يسع نحو عشرة آلاف نفس . طول واجهته الكبيرة 580 متراً فيها 375 نافذة . تم بناء القصر في القرن السابع عشر بما فيه من الرياش الفاخر ، والتحف التاريخية أو الصناعية . وأنشئوا بين يديه الحدائق التي تأخذ بالأبصار بما فيها من البرك والأشجار والغياض والبساتين . فلما كانت الثورة الفرنساوية بيع الرياش ونقل ما كان هناك من الصور الجميلة إلى اللوفر . لكن لويس فيليب أعاد إلى فرساي رونقها ، فجعل قصرها هذا متحفًا جمع فيه أهم مفاخر الفرنساويين التاريخية والفنية سماه «المتحف الوطني» ويعرف أيضًا بمتحف فرساي .

ويقسم هذا المتحف إلى قسمين كبيرين «1» قاعات لويس الرابع عشر وأهله وخلفائه ، فهي كالتحف بإتقان صنعتها ، وما على جدرانها وسقفها من النقوش البدية . «2» المتحف التاريخي الذي أنشأه لويس فلليب وفيه عدد عظيم من الصور والتماثيل أكثرها متوسط القيمة من حيث الصناعة . لكنه أراد أن يمثل بها تاريخ فرنسا بحسب أطواره ورتب ذلك في قاعات عديدة لا يكاد يجد الزائر وقتاً كافياً للمرور فيها فضلاً عن درسها فنكتفي بالإشارة إلى أهم ما فيها .

ففي الجناح الشمالي من القصر كنيسة كان يصلّى فيها أهل ذلك القصر متقدنة النقوش والوضع ، عليها كثير من النقوش الرخامية المذهبة والصور الدينية . منها صورة القيامة في وسط القبة . وعلى كلّ من المذابح صورة . وقاعات الصور التاريخية تقسم بحسب العصور أو الأدوار . منها قاعات تاريخ فرنسا من كلوافيس إلى لويس السادس عشر ، فيها صورة زيتية كبيرة تمثل أهم حوادث التاريخ في تلك المدة لأشهر المصورين مثل دلاروش ، وروجييه ، وشيفير ، وغيرهم ، وقاعات الحروب الصليبية تمتاز بإتقان جدرانها وما عليها من النقوش مع شارة قواد تلك الحروب «الأرمات» فضلاً عن الصور الكبرى التي تمثل الحوادث التاريخية الهامة . بينها صورة تتوج إمبراطور القدس سنة 1204 وأخرى تمثل واقعة عسقلان سنة 1177م بين الإفرنج والمسلمين . وصورة معركة طولوسة باسبانيا بين الإفرنج والعرب سنة 1212م . وصورة طواف الصليبيين حول أورشليم سنة 1099م . وفي إحدى هذه القاعات باب على النمط القوطي من مصنوعات فرسان رودس أهداه السلطان محمود الثاني لفرنسا سنة 1836م . ومن الصور التاريخية هناك صورة حصار رودس سنة 1480م ، وأخذ القدس سنة 1204م نقاً عن صورة في اللوفر . وصورة فتح القدس سنة 1099 وقطع الصليبيين البوسفور سنة 1097 لهم زاحفون على الشرق لفتح بيت المقدس .

وقاعات خاصة بصور تاريخية من سنة 1794-1830 بينها صورة نابليون الأول مجروحاً في راتسبون سنة 1809 وصور أخرى عديدة يضيق المقام عن ذكرها .

وفي قاعات الحوادث التاريخية العصرية في القرن التاسع عشر عدة صور تهمُ قراء العربية على الخصوص ؛ لأنها شرقية تمثل وقائع الفرنسيين مع العرب في الجزائر تحت قيادة الأمير عبد القادر المشهور . فإنه حاربهم أعواماً طويلة ، حتى كادوا يीأسون

من قهره ثم فقوا ذلك⁽¹⁾ بالاستيلاء على «الزملة» وهي بلد نقال فيه ما يحتاج إليه الجند من الصناع والعمال والخفر وفيها أهلها وأعوانه وأمواله وخزائنه ومؤونته ، والزملة عبارة عن خيام تحمل على الجمال في الصحراء ويحمل معها كلّ ما يحتاج إليه القوم من المؤونة والذخيرة . فإذا أرادوا النزول نصبوا الخيام بترتيب معين فيعرف كلّ واحد خيمته وعمله . وقد عمد الأمير عبد القادر إلى اختراع هذه الزملة في أواخر حربه مع الفرنساوين بعد أن أصبحت بلاد الجزائر تتقى بالحروب فلم يعد يأمن الإقامة في مكان .

فلما تعبدت فرنسا من مناهضته أغرت صاحب مراكش على معارضتها . وعلم عبد القادر في أواخر سنة 1847 بقدوم المراكشيين لغزو زملته ، ولم يكن فيها أكثر من خمسة آلاف ، والمراكشيون يزيدون على خمسين ألفاً . فخاف الأمير على رجاله وإن لم يعرف الخوف قبلًا . فعادت إليه نخوته فهجم ليلاً بذلك الجيش القليل ، وفرق شمل المراكشيين . ثم عادوا فاجتمعوا ثانية فهاجموه فطاردهم وظهر عليهم لكنه خسر جانبياً من رجاله ؛ فرأى الانسحاب أفضل له ، فرجع إلى الجزائر فوصل مكاناً علم بعد وصوله إليه أن الجيش الفرنساوي على مسافة ثلاثة ساعات منه ، ورأى أن جيشه قد أنهكه السفر وال الحرب ، فخشى أن يقع هو وزملته في أيدي الفرنساوين لأن لا يستطيع الرجوع والمراكشيون من ورائه يطاردونه - ولكن عاد فرأى أن يبذل قصارى جهده ، فجمع إليه رجاله فخطب فيهم مفصحاً عمّا هم فيه من الضيق وقال «أراكم قد وفيتكم بما بايعتموني عليه ، وبذلكم جهدكم في معارضتي . وأما الحالة الراهنة فتضلي على علينا بالتسليم للعدو ، وعندئي أن التسلیم للفرنساوين خير من التسلیم للمراكشيين فما رأيكم؟»

فأجابوه أنهم على رأيه ، فنظر إليهم فإذا هم عدة من أحسن الرجال وأشدتهم ، وقد رافقوه في حروبه خمس عشرة سنة ، فشق عليه أن ينتهي جهاده بهذا التسلیم للعدو ولكنه أذعن لحكم الضرورة قسراً ، وهو غير خائب لأنه جاهد للجهاد الحسن أكثر من 15 سنة حتى نفذت الحيلة .

وعلى ذلك تم التسلیم ، لكن المصور تصور هجوم الفرنساوين على الزملة وبعد

(1) كلّا وردت وأحسبها : وفروا إلى ذلك .

القادر غائب فمثل ذلك أحسن تمثيل في صورة طولها عدة أمتار شاهدناها في إحدى الغرف من قاعات متحف فرساي ووقفنا عندها ساعة نتأمل ما تولى رجال عبد القادر من الذعر لما رأوا خيول الأعداء تقاد تأخذهم ، فبرزت النساء من الخيام مذعورات وأخذ الخدم في مساعدتهن في ركوب الجمال التماساً للفرار . وهرب بعض الأتباع ، وفيهم اليهود أصحاب خزينة عبد القادر . ونفر ما كان معهم من الحيوانات الأهلية وبينها الغزلان طلبت البرية . وبان الرعب في كل حيّ ، وظهر الاضطراب في كل شيء فقلبت الخيام وأجفلت الجمال ، وذعر الأطفال ، وبكت النساء مما يستوقف البصر .

وفي تلك القاعات صورة نافرة تمثل نابليون وقد أطلق سراح عبد القادر في أمبواز سنة 1852 . وصورة زيتية لحصار قسنطية سنة 1837 ، وصورة أخرى لمعرض في المكسيك سنة 1838 ، وصور عديدة لواقع حربية في القرم سنة 1854 من جملتها أخذ ملاكوف ، ومعركة ألما^(١) ، ومعركة سلفريينو ، وغيرها ، وكلها كبيرة الحجم . والقسم الأوسط من القصر تسمى قاعاته بأسماء آلهة اليونان كالزهرة ، والمريخ ، وأبولون ، وغيرها . فيها صور زيتية وستائر مصورة نسجاً ما يسمى «غوبلين» أكثرها تمثل حوادث تاريخية فرنساوية من جملتها ستارة تمثل الكونت فوانس في حضرة لويس الرابع عشر باسم ملك إسبانيا . وأخرى تمثل اجتماع لويس المذكور ، وفيليب الرابع ملك الأسبان . وأخرى لزواج لويس الرابع عشر بماري تريز ، وغير ذلك . ومنها قاعة السلم . جدرانها مبطنة بالرخام وعليها أمثلة من الأوسمة البرونزية . وقاعة الزجاج طولها 72 متراً ، وعرضها عشرة أمتار ، وعلوها 13 متراً مزخرفة زخرفة باهرة . لها واجهة من زجاج تطل على حديقة فرساي ، وعلى جدرانها صور عديدة تاريخية لأزمنة مختلفة يطول بنا شرحها . وهناك غرف مختلفة بجلسوس الملك أو طعامه وعلى جدرانها صور بينها صور تمثل وقائع «دونكي شوت» . وهناك ساعة رقاقة كبرى تدل على الساعات والأيام والأشهر . ومنها غرفة الرقاد للويس الرابع عشر بفراشه وخزاناته وكراسيه وسائر ما يلزم .

(١) ألما : اسم نهر في القرم ، وفي معركة ألما انتصر الفرنسيون والإنكليز على الروس سنة 1854 م .

وفيها مات سنة 1715 بعد أن حكم 72 سنة .

وقاعات الملكة مصورة الجدران ، وفيها كانت تقام الملكة ماري تريز حتى توفيت سنة 1683 وماري لزينسكي ، ثم ماري أنطوانيت ، وفيها صورة هذه الملكة وعدة ستائر»غوبلين« . ومنها قاعة خاصة باستقبال الأعيان كانت الملكة تستقبلهم فيها بأوقات معينة وعلى جدرانها ستائر إحداها تمثل زيارة لويس الرابع عشر لعمل هذه الستائر وقاعة عرس الملكة وقاعات أخرى لمدام دي منثون وغيرها .

وفي الجناح الجنوبي من القصر قاعات عديدة للصور التاريخية . منها قاعة المعارك فيها صور أشهر المعارك الكبرى في جملتها معركة تورس⁽¹⁾ بين العرب بقيادة عبد الرحمن الغافقي ، والإفرنج بقيادة شارل مارتل سنة ٢٣٧ م وهي التي فاز بها الفنساويون وردوا العرب عن أوربا .

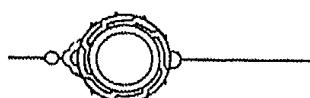
وصورة شارلزان في بادربون يستقبل وفود ويتيكند يقدمون الطاعة سنة ٧٨٥ م وصور أخرى تمثل الكونت أندرس يدفع النورمنديين عن باريس سنة ٨٨٥ م ومعركة بوفين سنة ١٢١٤ ، ووصول هنري الرابع إلى باريس سنة ١٥٩٤ ، ومعركة ريفولي سنة ١٧٩٧ ، وواقعة أوسترايتس سنة ١٨٠٥ ، ويانا سنة ١٨٠٦ ، وواغرام سنة ١٨٠٩ ، وجملة ما في هذه القاعة ٣٤ صورة و ٥٠ تمثلاً نصفياً لكتاب الملوك والأمراء .

وفي الطبقة العليا من هذا الجناح قاعات عديدة بعضها خاص بالثورة الفنساوية فيها صور أهم حوادثها وأشهر رجالها . مثل الاحتفال بالإخاء الوطني سنة ١٧٩٠ ، وصور مدام رولان وماري أنطوانيت في الهيكل ، ومقتل مرات ، وتمثال نصفي لميرابو ، وخطيب تلك الثورة ، وتمثلاً للفاييت⁽²⁾ ولويس ١٧ . وهناك قاعة خاصة لتصوير أعمال نابليون ، الأول وحوادث عائلته ومشاهير الأمة في عهده . منها صورة تمثل قواد الحملة المصرية صورت سنة ١٧٩٩ ، وغير ذلك شيء كثير يختص بنابليون وحوادثه

(1) المعركة التي جرت بين العرب والإفرنج هي معركة بوائيه ، أو معركة بلاط الشهداء . أما تورس فلم أجده لها ذكرأ .

(2) للفاييت : قائد وسياسي فرنسي حارب في سبيل استقلال الولايات المتحدة ، ثم شارك في الثورة الفنساوية . (١٧٥٧ - ١٨٣٤) .

المدهشة في بيته وفي جيشه وأسفاره وحربه وأولاده . وفي قاعات القسم الأوسط من هذا القصر شيء كثير من الرسوم لتمثيل الحوادث التي جرت لفرنسا في القرن الثامن عشر . في جملتها صورة كبيرة تمثل وصول سفير عثماني اسمه محمد أفندي إلى قصر التوليري سنة 1721 . وصورة أخرى لوصول سعيد باشا سفير الباب العالي سنة 1742 وبينها غرف لنوم ولبي العهد وأمه وغيرهما من أهل البلاط .



تريانون

وفي فرسائل غير هذا القصر قصران يعرف كلّ منهما باسم تريانون أحدهما الأكبر ، والآخر الأصغر كان يتردّد إليهما لويس الرابع عشر مع بعض العائلات أو الأعوان ، وهما متقدماً البناء وفيهما تحفٌ تاريخية أو فنية . وفي الكبير منها تحفٌ من الرياش الثمين النادر . ومن جملة ذلك كؤوس من الوجه « الملكيت » أهدتها القيصر إسكندر الأول إمبراطور روسيا إلى نابليون الأول . وفي التريانون الكبير أيضاً معرض المركبات فيه ثمانين مركبات إحداها لنابليون الأول ركبتها لما تعين قنصلاً أول ، وأخرى ركبها يوم زواجه . ومركبة قلدوا بها مركبة شارل العاشر وغيرها .

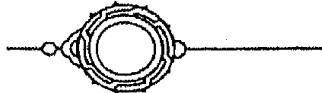
وفي فرسائل حدائق غناه جرّوا إليها الماء في بحيرات مدبرة بأنابيب إذا فتحت تفجر الماء من أفواهها وتصعد في الهواء على أشكال مختلفة وارتفاعات متفاوتة . وهم يحتفلون بفتحها في أوقات معينة من النهار يشهد الناس منظرها مما يشرح الصدر وينزه الخاطر ، وقد يجتمع الآلاف وعشرات الآلاف في بعض الأيام لهذه الغاية .



قصر ماليميزون

وعلى عشرة كيلو مترات من باريس قصر ماليميزون في ضاحية من أجمل ضواحي باريس فيها الحدائق والغياض على أجمل أسلوب ، واشتهر هذا القصر بجوزفين امرأة نابليون لأنها اعتزلت فيه بعد طلاقها سنة 1809 إلى وفاتها سنة 1814 . امتلكته ماري كريستين ملكة إسبانيا سنة 1842-1861 وأقامت فيه الإمبراطورةوجيني زوجة

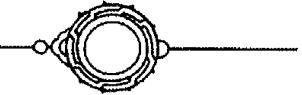
نابليون الثالث رحـاً من الزـمـن . وفي سـنـة 1900 اشتـراه دـاود أـوزـيرـيسـ المـشـريـ الفـرنـسـاـويـ الشـهـيـرـ «تـوفـيـ سـنـة 1907» أـهـدـاهـ لـلـأـمـةـ معـ ماـ يـعـيـطـ بـهـ مـنـ الـبـسـاتـينـ ،ـ لـيـسـ أـدـعـىـ إـلـىـ التـهـيـبـ وـالـاعـتـبـارـ بـصـيـرـ الإـنـسـانـ مـنـ زـيـارـةـ هـذـاـ القـصـرـ وـمـشـاهـدـةـ مـاـ لـاـ يـزـالـ فـيـهـ مـنـ الـرـيـاـشـ وـالـأـدـوـاتـ كـمـاـ أـنـ فـيـ زـمـنـ تـلـكـ الإـمـبـراـطـورـةـ السـيـثـيـةـ الـحـظـ زـوـجـةـ أـعـظـمـ الـقـوـادـ وـأـطـمـعـ طـلـابـ الـمـجـدـ .ـ فـإـنـكـ تـسـمـعـ مـنـ السـكـيـنـةـ السـائـدـةـ هـنـاكـ نـدـاءـ يـخـتـرقـ الـأـسـمـاعـ وـيـسـتـولـيـ عـلـىـ الـقـلـوبـ «أـنـ الإـنـسـانـ مـهـمـاـ بـلـغـ مـنـ جـبـرـوـتـهـ وـعـظـمـتـهـ لـاـ يـبـقـىـ لـهـ غـيـرـ أـعـمـالـهـ ،ـ وـلـاـ يـذـكـرـ لـهـ مـنـهـاـ إـلـاـ مـاـ أـفـادـ بـهـ بـنـيـ نـوـعـهـ» .ـ مـرـرـنـاـ فـيـ غـرـفـ ذـلـكـ القـصـرـ الـفـخـيمـ لـاـ نـسـمـعـ فـيـهـ غـيـرـ وـقـعـ أـقـدـامـنـاـ وـكـلـ مـاـ مـطـرـقـ يـتـأـمـلـ .ـ مـرـرـنـاـ بـقـاعـةـ الـاسـتـقبـالـ فـقـاعـةـ الـطـعـامـ فـغـرـفـ النـومـ وـالـكـتـابـةـ وـالـبـلـيـارـدـ وـالـمـوـسـيـقـىـ ،ـ وـشـاهـدـنـاـ الـخـزـائـنـ وـالـمـقـاعـدـ وـالـسـتـائـرـ وـالـأـرـائـكـ وـالـمـناـضـدـ .ـ وـعـلـىـ جـدـرـانـ القـصـرـ الصـورـ الـرـيـتـيـةـ تـقـشـلـ الـمـشـاهـدـ الـجمـيلـةـ ،ـ وـالـحـوـادـثـ الـهـامـةـ -ـ جـيـءـ بـهـ إـلـىـ ذـلـكـ القـصـرـ خـدـمـةـ لـأـهـلـهـ وـلـكـنـهـمـ ذـهـبـواـ وـبـقـيـتـ هـيـ .ـ شـاهـدـنـاـ طـاـوـلـةـ نـابـلـيـوـنـ الـتـيـ كـانـ يـكـتـبـ عـلـيـهـ بـيـدـهـ ،ـ وـخـزـانـةـ الـكـتـبـ الـتـيـ كـانـ يـرـجـعـ إـلـىـ كـتـبـهـ عـنـ التـحـقـيقـ .ـ وـالـقـلـمـ الـذـيـ كـانـ يـقـبـضـ عـلـيـهـ بـأـنـامـلـهـ .ـ وـفـيـ قـاعـةـ الـبـلـيـارـدـ صـورـ فـيـ جـمـلـتـهـاـ صـورـ حـمـلـهـاـ بـوـنـاـبـرـتـ مـنـ مـصـرـ سـنـةـ 1799ـ مـنـهـاـ صـورـةـ تـقـشـلـ بـعـضـ الـمـاشـخـ بـأـبـسـتـهـمـ الـعـرـبـيـةـ الـمـصـرـيـةـ جـاـؤـواـ لـمـقـابـلـةـ بـوـنـاـبـرـتـ وـعـدـةـ سـجـاجـيدـ جـمـيلـةـ .ـ وـفـيـ الـقـاعـةـ الـتـيـ كـانـتـ الـإـمـبـراـطـورـةـ جـوـزـفـينـ تـسـتـقـبـلـ فـيـهـاـ الـزـائـرـيـنـ سـجـاجـادـةـ ثـمـيـنـةـ .ـ وـفـيـ غـرـفـةـ الـمـوـسـيـقـىـ آـلـاتـ مـوـسـيـقـىـ كـانـتـ تـسـتـخـدـمـهـاـ الـإـمـبـراـطـورـةـ لـتـرـوـيـعـ النـفـسـ ،ـ وـطـاـوـلـةـ كـانـ يـلـعـبـ عـلـيـهـاـ بـوـنـاـبـرـتـ .ـ وـقـسـ عـلـىـ ذـلـكـ سـائـرـ مـاـ هـنـالـكـ مـنـ الـأـثـاثـ وـالـأـدـوـاتـ وـالـصـوـمـاـنـهـاـ صـورـةـ أـمـ نـابـلـيـوـنـ ،ـ وـمـنـسـجـ جـوـزـفـينـ ،ـ وـأـدـوـاتـ نـابـلـيـوـنـ ،ـ وـمـتـالـهـ وـهـوـ صـغـيـرـ .ـ وـعـلـبةـ شـغـلـ بـلـجـوـزـفـينـ هـدـيـةـ مـنـ مـدـيـنـةـ بـارـيـسـ .ـ وـسـرـيرـ سـفـرـ لـنـابـلـيـوـنـ ،ـ وـسـرـيرـ جـوـزـفـينـ مـجـلـلـ بـالـأـطـلسـ وـصـورـتـهـاـ سـنـةـ وـفـاتـهـاـ .ـ وـعـلـىـ أـكـثـرـ الـكـرـاسـيـ الـحـرـفـ الـأـوـلـ مـنـ اـسـمـهـاـ «ـلـوـخـزـانـةـ فـيـهـاـ مـظـلـاتـهـاـ وـنـعـالـهـاـ وـجـزـادـيـنـهـاـ»ـ .ـ لـاـ تـقـدـرـ وـأـنـتـ تـنـظـرـ إـلـىـ تـلـكـ الـبـقـايـاـ إـلـاـ أـنـ تـتـصـورـ نـابـلـيـوـنـ وـاقـفـاـ أـوـ جـالـسـاـ هـنـاكـ وـجـوـزـفـينـ وـمـاـ يـخـطـرـ لـهـ فـيـ عـزلـتـهـاـ .ـ



ونختم وصف باريس ومتاحفها وأحوالها بما شاهدناه فيها من تقدم السوريين في التجارة والأدب والفنون الجميلة . لقينا فيها عشرات من أصحاب المتاجر ، وقد جاروا الفرنسيين بالتجارة ، ولهم منزلة رفيعة بين علية القوم وأحرزوا ثقة أصحاب المعامل والمصارف . ولا يكثرون معاملات واسعة مع الشرق والغرب ، وأكثر اشتغالهم مع سوريا وأميركا الشمالية والجنوبية يعيشون إليها السلع من مصنوعات باريس على اختلاف أصنافها . فمن البيوت التجارية السورية في باريس محلات رحيم ، وبو شديد ، وشحادة ، وسليمان ، ودقرت ، وشقيير ، وبركة ، وداود ، وجاسر إخوان دوماني ، ومانوك ، وقزي ، وبيجاني ، وشخيري ، وزوين ، وياسوني ، وحسوس « فرع محل صيدناوي » وغيرها من البيوت التي تتعاطى أصناف التجارة . وقد اختص بعضهم بتجارة المجوهرات أشهرهم : كساب ، ونصبة ، وأبو حمد . وبالعطريات محل بشارة ملحمة ، وله شهرة واسعة في فرنسا وإنكلترا بما يصطنعه من العطريات المعروفة باسمه ، وقد نال جوائز السبق في المعارض الصناعية . وعرفنا من الملاليين الكومنت قريصاني مدير البنك الفرنسي المصري في باريس وهو من البنوك الكبرى وله فرع في مصر . وقس على ذلك مما يدل على اقتدار الشرقي على معجارة الغربي إذا تساوت الأسباب والوسائل .

ما يوجب الفخر أيضاً أننا عرفنا في باريس نفسها غير واحد من الأدباء السوريين يجارون أدباء فرنسا في آداب لسانهم يكتبون في أكبر جرائدتهم السياسية في أهم المواضيع الحيوية أو يؤلفون الكتب ، وينظمون الشعر بالفرنساوية بما لا يقل عمّا يفعله أدباء فرنسا أنفسهم . منهم شكري غامن ناظم رواية عنترة ، وقد قبل تمثيلها في الأوبرا الفرنساوية . وخير الله خير الله صاحب كتاب سوريا ، يكتب المقالات السياسية في جريدة الطان الشهيرة . والدكتور جورج سمنة له مجلة علمية تصدر بالفرنساوية بباريس اسمها Correspondences d'Orient وميشيل بيطار مترجم رواية العباسة أخت الرشيد . وهناك طبقة من أصحاب الفنون الجميلة يشتغلون للإفراج أنفسهم .

منهم موريس نجار يؤلف القطع الموسيقية للأجواق الفرنساوية التمثيلية وهو يرتفع
هناك بهذه المهنة . ووديع صبرا من أصحاب المواهب الموسيقية وقد عرفه الباريسيون .
وفيلييب موراني مصور فني يشتغل بالتصوير في باريس . وغير هؤلاء من الأدباء
وأصحاب الفنون الجميلة . وقد اقتصرنا على الشرقيين المشتغلين بالفرنساوية
للفرنسيسين في باريس . ونعرف طائفة من المشتغلين بهذه اللغة وأدابها بمصر والشام
سنعود إلى ذكرهم في فرصة أخرى . وقد يكون هناك كثيرون لم نطلع على آثارهم أو
لم تبلغنا أخبارهم . وإنما أردنا تقرير حقيقة يسر تقريرها كلّ شرقي يعني «أن الشرقيين
إذا توفرت لهم الأسباب جاروا أرقى الأمم المتدينة» .



القسم الثاني: إنكلترا نظام حكمها

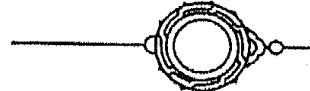
إن نظام الحكومة الإنكليزية من النوع الملكي المقيد ، وإنكلترا من أعرق الأمم في الدستور ، وهي أم الحكومات الدستورية . يرجع الحكم فيها إلى رأي الأمة فلا تسن الحكومة قانوناً ، أو تنفذ رأياً إلا بعد موافقة الأمة عليه . وينوب عن الأمة مجلسان يباختان الحكومة ويجادلانها ، أو يقتربان إليها هما : مجلس الأعيان ، ومجلس العموم ، ويُعبر عنهما بالبرلمان . تأسسا في أوائل القرن الرابع عشر . ويلتئم البرلمان بإيعاز الملك بعد إشارة المجلس الخصوصي قبل وقت اجتماعه بخمسة وثلاثين يوماً على الأقل . وجرت العادة أن يوالي اجتماعه بين فبراير وأغسطس من كل سنة للنظر فيما يعرض عليه من الشؤون . وبعد المباحثات والاقتراحات يصدر قراراته بأغلبية الأصوات .

يتتألف مجلس الأعيان من الأشراف ويبلغ عدد أعضائه نحو 650 عضواً وتنال عضويته إما بحق الإرث أو باقتراح الملك أو باستحقاق المنصب كالأساقفة ونحوهم أو بالانتخاب . ويتتألف مجلس العموم من أعضاء ينتخبهم عامة الشعب ؛ لينبوا عنهم ، وفيهم من ينوب عن المقاطعات أو المدن المركز أو نحوها من إنكلترا وسكتللاند

وأيرلندا . ويشترط في المنتخب أن يكون بالغاً رُشْدَه وأن يكون اسمه مقيداً في سجل المنتخبين . وللحكومة شروط في نيل حق الانتخاب لا محل لها هنا . ويبلغ عدد المنتخبين نحو سدس الأهلين ، ثلاثة أرباعهم من إنكلترا والباقيون من اسكتلاندا وأيرلندا . وانتخاب أعضاء البرلمان سريّ ، ولا ينتخب عضواً لم يتجاوز سنه 21 سنة ، ولا يجوز انتخاب أحد من الأشراف لعضوية مجلس العموم .

والقوة التنفيذية في الدولة الإنكليزية في قبضة الوزارة أو مجلس الوزراء ، لكنها تصدر باسم جلالة الملك . على أن هذا المجلس يتوقف تعينه على مجلس العموم فهو يعين رئيس الوزارة بأكثرية الأصوات ، وهذا يشكل الوزارة . ولذلك كانت الحكومة في أيدي الشعب . ومجلس الوزراء أو النظار عندهم مؤلف من 18 وزيراً كل منهم يتولى رئاسة دائرة من دوائر الحكومة وهي ثمانية عشرة دائرة أو وزارة : الخزينة ، والعدلية ، والختم الخاص ، والخارجية ، والهند ، والداخلية ، والمالية المستعمرات ، والحربيّة ، البحريّة ، وأيرلندا ، والتجارة ، والخلية ، والمعارف ، واسكتلاندا ، والزراعة ، والأسماك ، والبريد ، ولانكستر . على كل منها رئيس .

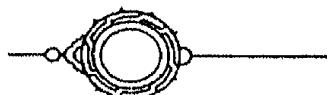
عظمتها وعمرانها



إن المملكة الإنكليزية بما يلحقها من المستعمرات أعظم الممالك المتقدمة وأكثرها سكاناً وأوسعاً ثروة . وهي تتتألف من بريطانيا العظمى ، وتشتمل على إنكلترا ، وويلز ، واسكتلاندا ، وأيرلندا . ومن مستعمراتها الكثيرة في القارات الخمس . فمساحة بريطانيا 121391 ميلاً مربع ، وعدد سكانها نحو 45000000 نسمة . وأما المستعمرات فإنها أوسع من ذلك كثيراً ، تقدر مساحتها بأضعاف مساحة بريطانيا . فهي تزيد على 11559000 ميل مربعاً وعدد سكانها يزيد على ستة أضعاف سكان بريطانيا أي نحو 300,000,000 نسمة تتفرق على هذه الصورة :

عدد سكانها	مساحتها بالأميال مربع	مستعمراتها
213615	119	في أوروبا
238664609	1637215	في آسيا
43467615	2880311	في أفريقيا
7426463	3865265	في أميركا
5120996	3176022	في أستراليا
294893298	11558932	المجموع

وتناهز ميزانية الحكومة الإنكليزية الآن نحو 200 مليون جنيه تُجمع من الضرائب المختلفة ، وتنفق في صالح الحكومة والجندية والديون وغيرها .



ثروة الأمة الإنكليزية

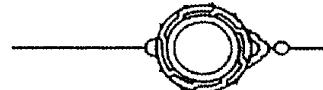
وإذا نظرنا إلى ثروة الأمة الإنكليزية رأينا ما يدهش العقل . وقد عقد أحد الباحثين فصلاً ضافياً في مجلة القرن التاسع عشر الإنكليزية في هذا الموضوع : خلاصته أن تجارة بريطانيا الخارجية بلغت في العام الماضي نحو 1800,000,000 جنيه أكثرها حمل في البحار . وأن ثروة الأمة الإنكليزية نحو 25,000,000,000 جنيه . ودخلها في السنة نحو 3,300,000,000 جنيه . وما من دولة تداني الأمة الإنكليزية في الثروة . والمشهور أن الأمة الفرنساوية تدانيها أو تفوقها . ولكن كاتب المقالة المتقدم ذكرها يجعل ثروة فرنسا نصف ثروة إنكلترا ، أي نحو 21,000,000,000 جنيه ويقول إن أقرب الأم ثروة إلى الإنكليز الولايات المتحدة الأميركيّة ، فإنه يقدر ثروتها بنحو 21,000,000,000 جنيه .

وأكثر ثروة الأمة الإنكليزية في بريطانيا يليها الهند ، وكندا ، وأستراليا على هذه النسبة :

البلد	دخلها	ثروة الأمة
إنكلترا وويلز	1740000000	13716779000
اسكتلندا	173500000	1451625000
أيرلندا	103000000	714279000
الهند	608000000	3600000000
كندا	259000000	2072000000
أستراليا	164000000	1312000000
جنوب أفريقيا	75000000	600000000
نيوزيلاند	40000000	320000000
الحميات وغيرها	170000000	1200000000
الجملة	24986683000	3332500900

وقابل الكاتب بين دخل الأمة الإنكليزية وما تنفقه في الدفاع عن حوزتها ، فبلغ نحو ثلاثة جنيهات عن كل مئة جنيه من الدخل أي 102,000,000 جنيه .
ويهمنا من هذه المملكة الواسعة في هذا المقام لندن العاصمة لأننا درسناها أكثر من سواها ، وفيها المتاحف والأثار سنصفها مع بعض البلاد الأخرى فيما يلي :

حالتها العلمية



التعليم في إنكلترا ثلاث درجات : الابتدائي والثانوي والعلمي ، فنقتصر هنا على وصف التعليم العالي في الكليات والجامعات . وأقدم هذه المعاهد العلمية بني خارج لندن . وأقدم جامعات لندن أنشئت سنة 1836 وظلت هذه وحيدة في لندن إلى أوائل القرن الحاضر فأنشئ سواها كما ستراء . وأما خارج لندن فيرجع تاريخ بعض الكليات إلى الأجيال الوسطى . وأرقاها جمیعاً جامعتا أكسفورد وكامبردج ، وسنعود إليهما عند وصف هذين البلدين من رحلتنا . أما سائر الجامعات والكليات في بريطانيا فأقدمها أنشئ في إسكتلندا في القرن الخامس عشر .

وهذا جدول بأسماء جامعات بريطانيا وكلياتها حسب سن إنشائها :

اسم الجامعة	مقرها	سنة تأسيسها
جامعة سنتاندرو	اسكتلندا	1411
= كلاسغو	=	1450
= أبربدين	=	1494
= أيدنبريج	=	1582
= دبلن	ايرلندا	1591
= درهام	إنكلترا	1831
= لندن	لندن	1836
= فكتوريا		1880
= برمنهام	برمنهام	1900
= لفربول	لفربول	1903
= ويلس	ويلس	1903
= ليدس	ليدس	1904
كلية جامعة لندن	لندن	1905
جامعة شفيلد	شفيلد	1905
جامعة بريستول	برستول	1909
= أيرلندا الوطنية	دبلن	1909
= بلفاست	ايرلندا	1909

وهناك جامعات وكليات أخرى فيسائر مداين إنكلترا الكبرى مثل منشستر وغيرها . وأكثر الجامعات مؤلف من كليات تختلف عدداً باختلاف أهميتها . ففي جامعة لندن 24 كلية وفي جامعة أكسفورد 22 كلية وفي كامبردج 17 كلية ، وتختلف أيضاً في عدد الأساتذة والتلاميذ . ولكن يقال على الإجمال إن الأساتذة في تلك الجامعات يتتجاوزون بضعة آلاف ، والطلبة يعودون ب什رات الآلوف . ولأكثر هذه

الجامعات أو قاف متوارثة يُنفق من ريعها على التعليم ، وفيها المعامل الكيمياوية ، والبكتيرiology والمعارض التشريحية ، والجيولوجية ، والنباتية ، والحيوانية وغيرها . أما المدارس الابتدائية والثانوية فيضيق المقام عن وصفها .

ويعظم هذه المدارس تنفق الحكومة عليها على أن جمعيات التعليم كثيرة في إنكلترا مما أنشئ لتهذيب الناشئة من الفقراء : منها جمعية في لندن تسمى «للله ولل الوطن» أنشئت منذ 47 سنة لجمع اللقطاء والمتشردين من الذكور والإنااث وتعليمهم وتربيتهم وتشقيف عقولهم . وهي تجمع الإعانات من أموال المحسنين . وقد بلغ المال الذي جمعته إلى الآن نحو 4,000,000 جنيه منها 235,000 جنيه جمعت في السنة الماضية . وبلغ عدد الذين أوتهم من الأطفال والمساكين في السنة المذكورة 9049 غلاماً ، وهي تعنى بهؤلاء المساكين وتعلمهم الصنائع ، وتبعد بهم إلى المستعمرات ولا سيما كندا . وتشترط في قبول المعوزين أن يكونوا مقطوعين لا نصير لهم . ولا يقبل منهم إلا ما بين الطفولية إلى السنة 14 ولها بضعة عشر مركزاً في لندن والولايات المتحدة . ورئيسها أسمه الدكتور برناردو .

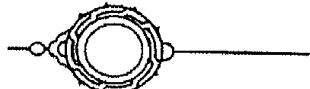
وللانكليز فضل كبير على العلم الحديث ، ولا سيما بما يتعلق بالاختراعات المحسوسة التي توقف عليها تسهيل المواصلات ، وتقريب المسافات كالسكك الحديدية ، والآلات البخارية ، وكثير من الصنائع الحديثة كالنسيج والغزل والخياطة . ومنهم شارب دروين صاحب مذهب النشوء والارتقاء ، وشكسبير مؤسس نهضة الأدب العصري ، وولتر سكوت ، وملتن . غير أصحاب الاكتشافات العلمية في الطب ، والكيمياء ، والطبيعيات ، وعلم الحياة ، والاجتماع ، ومنهم : ليستر ، وجنز ، وهكسلي ، وسبنسر . غير رجال السياسة والإدارة أصحاب الأدمة الكبيرة .

ومن قبيل الحالة العلمية تكاثر المكاتب ، وغرف المطالعة وهي عديدة . وكذلك الصحافة فإن في لندن وضواحيها نحو 400 صحيفة بعضها يطبع مئات الآلاف من النسخ كل يوم - غير المراسح للتمثيل ، والمعارض العلمية ، والجمعيات العلمية والأدبية والأكاديمية وغير ذلك مما يطول شرحه .

وفي إنكلترا اليوم حركة فكرية ، وإقدام على الكتابة والتأليف في المواضيع المختلفة ، وقد أحصى بعضهم أشهر الكتاب الإنكليز المعاصرین ورتبتهم حسب

المواضيع وخلاصة ذلك كما يأتي :

عدد الكتاب	عدد الكتاب
35 في التاريخ الديني	125 في الأدب
52 في تاريخ إنكلترا	172 في الترجم والمذكرات
40 في التاريخ الحديث	57 في الدين
120 في سائر التواريخ	89 في التمثيل
120 كتاب الصحف	16 في انتقاد التمثيل
60 في القضاء	35 في الاقتصاد السياسي
150 في اللغة الإنكليزية وأدابها	60 في التهذيب
200 في سائر اللغات	55 في آثار القدية
20 في الموسيقى	25 في هندسة البناء
45 في الفلسفة	55 في الفنون الجميلة
180 في الشعر	570 في الفكاهات والروايات
49 في علم العمارة	48 في السياسة
50 في الصيد واتواعبه	38 في الطب
140 في اللاهوت	49 في التاريخ الطبيعي
145 في السياحات ونحوها	15 في الرياضيات
3027 «الجملة»	12 الجيولوجيا

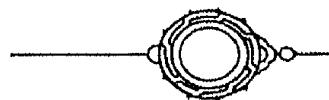


لندن

هي عاصمة المملكة الإنكليزية طولها 14 ميلاً، ومتوسط عرضها نحو عشرة أميال ، ومساحتها بالتقريب نحو 130 ميلاً مربعاً . فيها 8000 شارع إذا اتصلت حتى يتآلف منها شارع واحد كان طوله 3000 ميل . وأحصوا أبنيتها بنحو 650,000 بناء ، منها :

1500 كنيسة ، و 6500 محل عمومي و 1700 ناد و 500 أوتيل . وهي أكثر مدن العالم سكاناً . يقدر سكانها بنحو 6,000,000 نفس أكثرهم من الإنكليز طبعاً . لكن فيها جماعات كبيرة من الأمم الأخرى . حتى قالوا إن فيها من الاسكتلنديين أكثر مما في أيرلندا ، ومن الأيرلنديين أكثر مما في دبلن ، وفيها من اليهود أكثر مما في فلسطين . ومن الكاثوليك أكثر مما في روما . وسنعود إلى وصف المتاحف والتحف ونكتفي هنا بذكر الفرق بين لندن وباريس :

الفرق بين لندن وباريس



(1) إنهم توأمان في الفخامة والعظمة ، ولكن لندن أوسع مساحة وأضخم أبنية ، وأظلم جوًّا . وأما باريس فإنها أجمل منظراً وأكثر زهوًّا وأشرق سماءً وأصفى هواءً .

(2) ليس في لندن أماكن للجلوس في سبيل اللهو أو الراحة كالقهوة والبارات التي ذكرناها في باريس . فالغريب إذا احتاج إلى الراحة في غير المنازل ليس له إلا المقاعد في الحدائق العمومية ، أو يمر بالشوارع للفرجة . وفي لندن حانات كثيرة لأنواع الخمور ، وحوانيت لشرب الشاي أو القهوة أو غيرهما من المرطبات أو المخدرات . لكنها كالمخازن التجارية تطلب ما تريده وتتناوله ، وتنصرف كما تفعل لو أردت تناول الطعام في مطعم . وليس عندهم مجالس للتسلية إلى موائد كما في القاهرة مثلاً . والظاهرة من حيث القهوة وأماكن اللهو كثيرة الشبه بباريس . على أن بعضهم أنشؤوا في لندن أماكن من هذا القبيل تشبه ما في باريس لكنها قليلة ، وليس على قواعط الطرق .

(3) أن الماشي في شوارع باريس إذا اقتضى أن يوسع لمقبل عليه خوفاً من التصادم ، تحول نحو اليمين كما يفعل أهل القاهرة . فالمركبات والدواب ، والناس يتحولون في شوارع باريس إلى يمينهم أما في لندن فبعكس ذلك . لأن المارة في شوارعها إذا تلقو تحول كل منهم إلى يساره . وقد نبهوا الناس إلى ذلك بألواح كتبوا عليها قولهم «إلى اليسار» فإذا تلقي اثنان وتحول كل منهما إلى يمينه لا يتصادمان

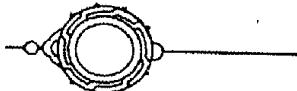
وكذلك إذا تحول إلى اليسار . أما إذا تحول أحدهما إلى يمينه ، والآخر إلى يساره ففيهما يتصادمان . ولذلك فالفرنساوي والإنكليزي إذا تلاقيا ، ومشى كلُّ منهما على ما تعوده في بلده لا بد من تصادمهما !

(4) ليس في لندن أماكن عوممية للفحشاء كما في باريس ؛ لأن الحكومة الإنكليزية تحظر على الناس الاتجار بها . خلافاً لمعظم حكومات أوروبا ، وقد أحسنت إنكلترا ويا حبذا لو اقتدت مصر بها في ذلك فأخذته عنها كما أخذت غيره من أسباب المدينة - ولكن مصر أباحت إنشاء تلك الأماكن اقتداء بفرنسا وغيرها من الدول التي تبيحه ، وقد أخطأت كما بينا ذلك في الهلال .

(5) إن هيبة التدين ظاهرة في لندن أكثر مما في باريس ، ولا سيما في أيام الأحد . فإن تلك المدينة الضخمة التي تعج أسواقها بالناس عجيجاً في أثناء الأسبوع ، وقد بُسيطت فيها البضائع وعرضت السلع على قواعِ الطرق تصبح في يوم الأحد خاليةٌ خاوية لا تجد فيها بايضاً ولا شارياً ولا صانعاً ولا عاملاً . وإنما يخرج الناس بعد الصلاة للنزهة في الحدائق العمومية أو غيرها في لندن وضواحيها . وهكذا تفعل سائر مدن إنكلترا وقرابها حتى السكك الحديدية فإن حركتها تخف في أيام الأحد والأعياد . فالإنكليز من أكثر أمم أوروبا تديناً ، وقد نفعهم ذلك في كثير من أحوالهم الاجتماعية .

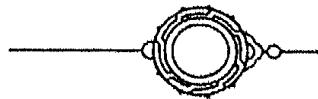
(6) إن عادة البخشيش شائعة في لندن لكنها أقل كثيراً مما في باريس لقلة القهوات والملاهي كما قدمنا .

(7) لا تجد في الشوارع العمومية من بنات الرصيف ما تجده في باريس . وسنعود إلى لندن عند الكلام عن المتحف والآثار .



نظام الاجتماع فيها

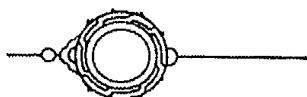
نظام الاجتماع في إنكلترا يشبه على إجماله نظام سائر المالك الأوربية من حيث العائلة والحكومة والمدرسة والكنيسة . لكنه يمتاز في إنكلترا بخصائص لا يخلو ذكرها من فائدة هاك أهمها :



لا يخفى أن إنكلترا أم الحكومات الدستورية ، وأقدم من اعترف بحقوق العامة . ومع ذلك فالآمة عندهم مؤلفة من طبقتين متباینتين لا تختلط إحداهما بالأخرى - نعني الخاصة ، وال العامة أو الشرفاء والعمال أو الأعيان والعموم ، وذلك من بقايا القرون الوسطى التي كان فيها اللورد صاحب الأرض وله السيادة هو وأهله على بلده ، وسائر الناس أعون له أو عمال في مزارعه . وكان ذلك شأن أكثر أمم أوروبا في عصر الإقطاع . لكن أكثرهم عدلوا عنه ، وساواوا بين طبقات الآمة في الحقوق والواجبات . إلا الإنكليز فلا يزال لأهل السيدات القديمة حقوق يمتازون بها عن سواهم في بعض الأحوال السياسية والاقتصادية . ولكلّ من هاتين الطبقتين شأن خاص مستقل عن شأن الطبقة الأخرى . ونواب الآمة طبقتان في مجلسين مجلس الأعيان ، ومجلس العموم ، وقد ترى مثل هذين المجلسين في بعض الأمم الأخرى لكنه عند الإنكليز مبنيًّ على تسلسل الأرستقراطية من الأجيال الوسطى . ولا يزال كثيرًّ من الأرضين ملكاً للشريفاء يتوارثونها ، ولا يبيعونها بيعاً قاطعاً . وإنما يبيعون مرافقتها إلى أجل معين . والغالب أن يبيعك الشريف الأرض تملكتها إلى 999 سنة ، فتدفع له ثمنها أو حق صيرورتها إليك بعد تلك المدة . . . ويبقى له عليك مال يتقادمه كلّ سنة يتم الاتفاق عليه يسمونه في اصطلاحهم «Chief» ، وقد يحتالون في تملك الأرض حيلة شرعية فيتفق الشاري والبائع على مبلغ يدفعه الشاري مرة واحدة بدل الأقساط السنوية نحو ما تفعل الحكومة المصرية في استبدال معاش المستخدمين . فإذا دفع الشاري ذلك المال صار مالكاً ل الأرض . عرفنا صديقاً لنا في منشستر ابتاع منزلًا من أحد الشرفاء بألفي جنيه دفعها متعجلًا ، وبقي عليه الأقساط «التشيف» نحو مئة جنيه يدفعها كل سنة . وأخبرنا أنه ينوي أن يستبدل الأقساط بألفي جنيه أخرى فيصير المنزل ملكاً له .

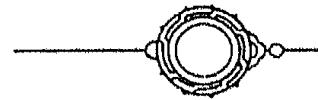
فالإنكليز عندهم الحرية والإخاء ، وليس عندهم المساواة . على أنهم عاملون على نزع تلك الامتيازات من الشرفاء . وقد أفلحوا في كثير من مطالبهم ، لكن المساواة

الكلية يبطئ الوصول إليها تأصل الأرستوقراتية في نفوس القوم من أجيال متولدة . حتى تراها في كثير من أدابهم الاجتماعية . ومن آثارها المحسوسة أنه ليس في قطر السكك الحديدية درجة وسطى بين الأعيان والعموم . فالقطار عندهم فيه عربات من الدرجة الأولى وعربات من الدرجة الثالثة . ولا تجد درجة ثانية في قطتهم إلا ما يتصل منها بالقطر الفرنساوية وغيرها على الحدود .



ضرائب الدخل

لا تخلو دولة من ضرائب تضريها على رعاياها تسد بها نفقات رعايتهم ، والقيام على حراستهم أو القضاء بينهم . لكن الإنكليز يزيدون على ذلك نوعاً من الضرائب اقتضاه تفاوت الثروة في طبقات الأمة . فجعلوا مقدار الضريبة بنسبة تلك الثروة ، ويعولون في تقديرها على الدخل لا على رأس المال . فيفرضون على الغني أو التاجر مبلغاً من دخله السنوي يسمونه ضريبة الدخل . أصلها إعانة فرضتها الحكومة على الأمة للاستعانة بها على محاربة الفرنسيين سنة 1512 ، فقرر البرلمان يومئذ أن يدفع العامية 15/3 من دخلهم تلك السنة ، والكهنة الخمس . وفي سنة 1798 زادوها مثل ذلك السبب . وما زالوا يزيدون الضرائب وينوونها ويعذلونها حتى بلغت ما هي عليه الآن . وهي تختلف حسب السنين ، ولكنها نحو خمسة في المائة ، من الدخل أو شلن في الجنيه . ولا يدفع هذه الضريبة إلا الذي يبلغ دخله 160 جنيهًا في السنة فما فوق . ولهم شروط لمن يزيد دخله على ذلك إلى 700 جنيه . فهو لا يعفونهم من بعض الضريبة . أمّا من زاد دخله على 700 جنيه فيدفع الضريبة كاملة . وقد بلغ دخل الحكومة من هذه الضريبة نحو 32,000,000 جنيه في السنة غير ضرائب الجمارك ، وعوائد الروحيات وسائر المسكرات والمخدرات . وغير حق الرخص والإذن في معاطاة المهن على اختلاف أشكالها .

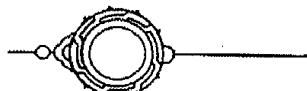


لل العامة في إنكلترا مشاكل من اعتصاب وإضراب كما في فرنسا ، لكن للإنكلزيز عنابة خاصة بهم ولا سيما طبقات العمال والخدم . لعل ذلك من بقايا واجبات الأرستقراطية في العهد القديم . لأن ربّ البلد «اللورد» كان يرى نفسه مسؤولاً عن حال أتباعه من حيث أسباب معاشهم . ولو تبعت تاريخ وضع ضرائب الدخل المتقدم ذكرها ؛ لرأيتها تنوعت وتعديل طبقاً لمصلحة العمال أو الفقراء من أصحاب التجارات الصغرى . كانت في أول وضعها شاملة كلّ إنكليزي مهما قلّ دخله . ثم أخذوا يعدلونها حتى ألغوا منها أصحاب الدخل القليل الذي لا يزيد على (160) جنيه . وخففوها عن الذين لا يزيد دخلهم على (700) جنيه . وأبقوها على سائر الناس كما رأيت . ولا يخفى أن الأموال التي تجمع من الضرائب تتفق في مرافق الأمة بلا تمييز بين الغني والفقير - أو هي لمصلحة الفقير أكثر مما لمصلحة الغني . وهي عنابة بالعامة كالزكاة في صدر الإسلام تؤخذ من الأغنياء وتتنفق في الفقراء .

والحكومة الإنكليزية تعدّ نفسها وصية على الفقراء من رعاياها ؛ فتضيع القوانين لمصلحتهم وتحيرهم على أتباعها . أو هي تتولى تنفيذها عليهم - لعلها تتقى اعتصابهم أو إضرابهم . من ذلك قانون صدر في الصيف الماضي ونحن في إنكلترا وضعيته الحكومة لمنفعة الخدم وصغار المستخدمين اسمه «National Insurance act» في (140) صفحة كبيرة . مآله ضمان مستقبل كل مستخدم في المملكة الإنكليزية سنّه بين 16 و(7) سنة يقل دخله السنوي عن (160) جنيهها . وكل عامل يشتغل بيده لحساب نفسه ولو زاد دخله عن (160) جنيهها في السنة . ففترض على كل من هؤلاء أن يختزن من دخله مالاً يعينه في شيخوخته أو مرضه - جعلت ذلك إجبارياً لا يرى العامل مفرراً منه بوجه من الوجه . وهو يشمل الممثلين في المراسح وأساتذة المدارس الصغرى والثانوية ، وكتاب المصارف والمتأجر ، وخدّام المنازل ، وعمال المعامل ، وفيهم أصحاب العاهات البدنية وساقة المركبات والنوتية وغيرهم ، وكل عامل له رئيس يدفع له أجرة .

وكيفية ذلك الضمان أن الحكومة طبعت أوراقاً كالسراكي⁽¹⁾ ، أو الاستثمارات في اصطيلاحنا تفرقها في العمال . وعلى العامل أن يقدم واحدة منها كل أسبوع وعليها طوابع مختومة يشترك هو ورئيسه والحكومة في دفع قيمتها . وتختلف تلك القيمة باختلاف راتب العامل . فالرجل الذي تزيد أجرته على شلنين ونصف شلن في اليوم يدفع هو أربعة بنسات في الأسبوع ، ورئيسه يدفع ثلاثة بنسات ، والحكومة تدفع بنسين . الجملة تسعه بنسات «نحو ثلاثة غروش ونصف» تلخص بقيمتها طوابع على الاستثمارة ، وتحتم ، وتقدم للحكومة كل أسبوع . وإذا كان العامل صاحب هذه الأجرة امرأة تعامل مثلَ معاملة الرجل إلاً ما⁽²⁾ تدفعه هي فيكون ثلاثة بنسات بدلاً من أربعة ، ويختلف مقدار المدفوع باختلاف درجة العامل ومقدار أجرته .

والحكومة تحفظ للعامل ما يقدمه كل أسبوع وتحتزن له حسابه وقد تستثمره له فيضمن مستقبلاً رغم إرادته . ومعظم هذا الضمان من رئيسه والحكومة ، وهي لا تضرها لكن تنفع العامل المسكين . وفي ذلك القانون شروط وأحكام تفصيلية لا محل لها . لكنها بلا شك من أحسن ما استنبطته القرائح لمصلحة العمال ، وضمان مستقبلهم على نفقة الحكومة وأصحاب الأموال . فضلاً عما فيها من المشقة على أصحاب التحارات أو المعامل . فان كل واحد منهم مكلف بالتوقيع على السراكي أو الاستثمارات بيده كل أسبوع وقد يكون عنده مئة عامل أو ألف .



أخلاق الإنكليز

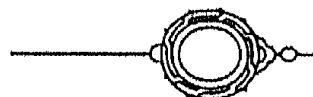
الثبات والتعويل على الحقيقة : للإنكليز أخلاق بارزة واضحة تختلف عما لسوادهم من الأم يمكن تلخيصها بكلمتين يعني «1) «أنهم يجنحون في أعمالهم وشئونهم إلى الحقيقة المحسوسة دون الظواهر» «2) «أنهم ثابتون في مبادئهم وعاداتهم ومشاريعهم فإذا عرفت ذلك فيهم هان عليك تعليل أكثر ما يعرض لك من أخلاقيهم .

(1) السراكي جمع سركي : صك المعاش ، وهي بثابة وثيقة دفع ، والكلمة دخلة .

(2) كما والصواب إلاً أن ما تدفعه ...

والإنكليزي هادئ الخلق ، يندر أن تتغلّب عليه الحدة حتى تخرجه عن طور إرادته ، ولذلك مجدهم يبحثون في أهم المسائل وأخرج المشاكل ، ويتجادلون ويتناقشون بهدوء وسکينة . ويغلب في أدلةهم أن تُبني على العقل أكثر مما على العواطف . ويظهر لك الإنكليزي جاماً ، وقد رى في نفسك تفوقاً عليه بسرعة الخاطر ، لكنك عند العمل تجده أثبت منك قدماً ، وأصبر على التعب ، وأقدر على المشاريع الكبرى . وترى فيه سكوتاً وطولأً أناة في موقف يستفزُ سواه ويهيج غضبه ، وليس ذلك من بلادة في طبعه ، وإنما هو من قبيل ثباته في أعماله وتعويله على الحقائق فلا يكتثر بالصغائر بل يجعل همه الغرض الذي يسعى إليه ، لا يبالى بما يقف في طريقه من العقبات ولا سيما إذا كانت تلك العقبات أمراً وهمية كالكلام في الصحف ونحوها إذا لم يكن مبنياً على حقائق محسوسة - فهو يهمه أن يصل حماره إلى العباسية ، ولا يلتفت إلى شقة^(١) المكارى في أثناء الطريق .

الكبرياء والأنانية



ومن الأخلاق المشهورة عن الإنكليز أنهم متكبرون يتربعون عن مخالطة سواهم من الأم . وهي تهمة لا تخلو من الحقيقة . إن الإنكليزي معجب بنفسه ، يفتخر بدولته وأمته ، وينفرد عن سائر الأمم فلا يزاوجهم أو يختلط بهم إلا بما تقتضيه المصلحة التجارية أو السياسية . ولا عجب فإننا في عصر الأنجلوسكسون كما كان العرب في إبان دولتهم والرومان قبلهم . ولكلّ أمة عصر إذا تفوقت فيه على سواها توهمت امتيازها الفطري عليهم بالجبلة الأصلية - وهي طبعاً لا تزال ذلك التفوق إلا لموهاب فيها تمتاز بها عن سواها .

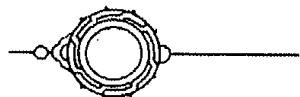
وما يوجه إلى الإنكليز من الانتقاد أنهم أنانيون يحبّون الاستئثار بالمنافع لأنفسهم ، وهو خلق فطري في الإنسان لا يختص بأمة دون أخرى . لكنه يظهر في

(١) شقة المكارى : ارتفاع صوته . والمكارى هو مؤجر الدواب . والمقصود : أن الإنكليزي يهمه الوصول

إلى الهدف .

الإنكليزي؛ لأنه لا يبالي أن يظهره ويتمسك به . ولا يهمه ما يسميه الآخرون أريحية أو نجدة ويدونها من أسمى المناقب ، فهو لا يعرض نفسه للخسارة لمنفعة سواه كما يفعل الفنساويون مثلاً ، أو كما يفعل العرب ويدونه من مفاسيرهم . ولذلك كان العرب أسرع اختلاطاً بالفرنساويين مما بالإنكليز .

ومن مقتضيات الجنوح إلى الحقائق أن الإنكليزي صريح في أقواله وأعماله ، لا يقول غير ما يعتقد ولو سألك قوله . فيظهر ذلك منه مظهر الجفاء . ولكنه يعدّ الجاملة ضررًا من العبث ، فلا يزال يتဂّب حتى يتعرّفك ، ويُثني بك فيمداد لك يده ، ويصافحك ، ويكون عند ذلك من أخلص الأصدقاء وأظرف الجلساء .

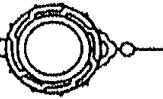


التربية الأدبية^(١) والعلمية

ومن مقتضيات ذلك الخلق أيضًا ما تراه من ثبات الإنكليز في أفضل وسائل التربية البدنية والعقلية ولا سيما الرياضة ، وهم قدوة الأم فيها . وقد ألفَ ديمولان الكاتب الفنساوي كتابه سرّ تقدم الإنكليز؛ ليحرض قومه على الاقتداء بهم في التربية والأخلاق والتعليم وغير ذلك . واحتضن غوستاف لابون أخلاق الإنكليز بالإطراء في كتابه «العوامل الأخلاقية في تكون الأمم» فالإنكليزي رأى بعين الحقيقة أن هذا الضرب من التربية مفيد له ؛ فاتّبعه ووضع له قواعد أساسها الفائدة الحقيقية بلا زخرف ولا تنميق . وزادهم ثباتاً فيها أنهم فطروا على احترام آراء رجال التاريخ ، وأصحاب الموهب منهم والعمل بها بلا جدال أو نقد - لعله من بقايا خصوصهم للشرفاء في عصر الإقطاع . ولهذه المنقبة فضل كبير في جمع كلمتهم ، وتأييد مساعيهم ؛ لأن الأمة إذا عملت برأي عقلائها كانت كلّها عقلاً . بخلاف الأمم التي يزعم كلّ من أفرادها أنه صاحب الرأي الأصوب والنفوذ الأعلى . ويرى الانصياع لرأي سواه صغاراً ومتلة كما هو شأن الأمم الضعيفة التي صارت إلى الشيخوخة ، وأذن الزمان بفساد أمورها وانقضائتها .

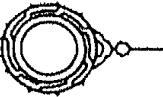
(١) كذا وردت

الصدق والوفاء



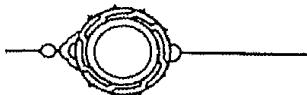
المشهور أن الإنكليزي على الإجمال بطيء الخاطر غير مفرط الذكاء . لكنه ناجح على الغالب في أعماله ومشاريعه فما هي علة نجاحه ؟ العلة الحقيقة أنهم يعملون بالقواعد التي قرر عقلاؤهم أنها وسيلة النجاح ، وقد رسمت في أذهانهم بالتربيـة للأسباب التي قدمـناها . وهي تعلـمـهم أن التاجر أو الصانـع يجب أن يعوـلـ في أعمالـه على الحقـائق مع المنفـعة المـتبادـلة . فجعلـوا مـعـولـهم على الصـدقـ والأـمانـةـ والثـباتـ ، وهي أهمـ أـسـبـابـ نـجـاحـهـمـ فيـ أـعـمالـهـمـ الـكـبـرـيـ والـصـغـرـيـ . وقد اشتـهـرـ ذلكـ عنـهـمـ حتىـ جـرـىـ مجرـىـ الـأـمـثالـ . والـمـشـهـورـ بـيـنـ تـجـارـ الـأـرـضـ إنـ الإنـكـلـيـزـ إـذـ سـأـلـتـهـ عنـ سـعـرـ بـضـاعـتـهـ أـعـطـاـكـ أـخـرـ سـعـرـ يـوـافـقـهـ ، ولاـ يـفـتـحـ بـابـاـ لـلـأـخـذـ والـرـدـ ، أوـ المـساـومـةـ كـمـاـ تـفـعـلـ سـائـرـ الـأـمـ .

المحافظة على التقاليـد



قد رأـيـتـ الأـمـةـ الإنـكـلـيـزـيةـ لاـ تـزالـ حتـىـ الآنـ مـحـافـظـةـ عـلـىـ الـأـرـسـتـقـراـطـيـةـ رـغـمـ إـعـرـاقـهـاـ فـيـ الدـسـتـورـةـ - حتـىـ الدـسـتـورـ عـنـهـاـ لاـ يـزالـ مـحـفـوظـاـ بـالـتـقـلـيدـ أيـ أـنـهـمـ لمـ يـدـوـنـواـ قـوـاعـدـهـ وـشـرـوـطـهـ بـمـاـ يـسـمـيهـ العـشـمـانـيـوـنـ الـقـانـونـ الـأـسـاسـيـ أوـ نـحـوهـ . وإنـماـ يـجـرـونـ بـهـ عـلـىـ التـقـالـيـدـ الـمـاضـيـةـ فـيـ حـكـمـهـمـ فـيـ شـؤـونـهـ بـالـقـيـاسـ عـلـىـ أـحـكـامـ سـابـقـةـ أـصـدـرـهـاـ أـسـلـافـهـمـ مـعـ مـرـاعـةـ مـقـتضـيـاتـ الـأـحـوالـ ، وـإـذـ عـرـضـتـ مـسـالـةـ لـمـ يـسـبـقـ الـحـكـمـ فـيـهـ حـكـمـوـاـ فـيـهـ ، وـعـدـّـوـاـ حـكـمـهـمـ سـابـقـةـ لـمـ يـأتـيـ بـعـدـهـمـ . فـالـإنـكـلـيـزـ مـنـ أـكـثـرـ الـأـمـ مـحـافـظـةـ عـلـىـ التـقـالـيـدـ الـمـتـوارـثـةـ . وـذـلـكـ مـنـ قـبـيلـ الشـبـاتـ فـيـ أـخـلـاقـهـمـ . وـلـهـذـاـ السـبـبـ كـانـواـ مـنـ أـشـدـ النـاسـ اـحـتـرـاماـ لـرـجـالـ الـتـارـيـخـ مـنـهـمـ ، يـنـصـبـونـ لـهـمـ التـماـثـيلـ وـيـعـمـلـونـ بـأـقـوـالـهـمـ ، وـلـنـفـسـ هـذـاـ السـبـبـ جـرـواـ فـيـ اـسـتـعـمـارـهـمـ عـلـىـ اـحـتـرـامـ تـقـالـيـدـ الـأـمـ الـتـيـ

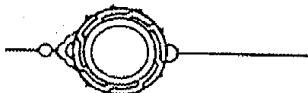
تدخل في سلطانهم أو حمايتهم . فلا يتعرضون لهم في شيء من أديانهم أو عاداتهم . بل يساعدونهم على القيام بشعائرهم الدينية أو الوطنية . ولذلك كان الشرقيون أكثر ارتياحاً إلى سيادتهم مما إلى سواها لولا ترفهم وبعدهم عن الجamaة .



التدين والنظام

ومن قبيل الثبات والمحافظة على التقاليد أنهم متمسكون بعقائدهم الدينية . ورغم تطرف أكثر الأئم من جيرانهم وزملائهم في الحرية الدينية ، حتى جاهروا بمناؤة رجال الكهنوت ، ومطاردة الجمعيات الدينية ، فالإنكليز ما زالوا متمسكين بأهدايب الدين يحافظون على طقوسه وتعاليمه ولاسيما الراحة يوم الأحد ، فقد ذكرنا كيف يقفلون الحوانيت والمخازن وغيرها في أيام الأحد والأعياد .

ومن هذا القبيل أيضاً خصوصهم للنظام وتقديسه والإذعان له باحترام وافتخار ، لا يستنكف⁽¹⁾ من ذلك كبيرهم ولا صغيرهم . ولا يرى الملك بأساساً أن يعترف بالخطأ ، بين يدي أصغر رعاياه ولا يعد ذلك خطأ⁽²⁾ . وإنما هو من نتاج جنوحهم إلى الحقيقة ، واحترامهم إياها . وتتجدد كتبهم المدرسية مشحونة بالحكايات التي تعلم هذه المنقبة وأمثالها من الصراحة بالقول والاعتراف بالخطأ . غير القدوة الحسنة التي يستفيدها التلاميذ من أساتذتهم أو والديهم أو كبارهم في هذا السبيل .



الشعور بالواجب

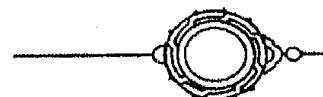
إن الشعور بالواجب عام في الممال الراقية لكنه ظاهر كلّ الظهور في أخلاق الإنكليز . فالإنكليزي يعرف ما عليه من حق أدبي أو مادي ؛ فيؤديه في حينه بلا

(1) يستنكف : يمتنع .

(2) الخطأ : نقصان المنزلة .

مطالبة أو استحثاث . يفعل ذلك بهدوء وسکينة . لأنه من أكثر الناس عملاً وأقلهم كلاماً . فإذا وعدك بزيارة كن على ثقة أنه مُنجز وعده . وإذا كلفته بخدمة فمن التأدب عندهم أن لا يؤكّد لك نجاحه فيها ، وإنما يقول «أني سأجرب» فإذا قال هذا قائل منهم عذوا قوله وعداً أكيداً . وهكذا إذا عزم أحدهم على تكليف آخر بخدمة أو مطالبته بحق له أو وعد يتوقعه ، فإنه يجعل طلبه بصورة الاستفهام أو الشك فيقول مثلاً : «ماذا تظن لو فعلت كذا» فيجيبه «أظنني فاعلاً كذا» فيعدّ ذلك وعداً لا بد من قضائه . وهذه التعبير تكون غالباً في الطبقة الراقية من القوم .

المراة الإنكليزية



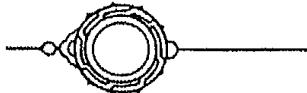
المرأة في إنكلترا تشبه سائر النساء في أوروبا في أكثر الأحوال الاجتماعية والأدبية ، لكنها تفرق عنهنّ بما يقتضيه الخلق الإنكليزي أو التربية الإنكليزية من بعض الوجوه . فهي أميل إلى الحقائق في أدابها وعاداتها وأزيائها . ويمتاز الزي الإنكليزي غالباً بالبساطة لأنهم يلاحظون فيه المنفعنة الحقيقة - شأنهم في كل شيء . وإذا رأيت إنكليزية بثوب مزخرف فإنها تقلّد به غير الإنكليز .

ومن هذا القبيل انصرافها إلى الرياضة البدنية بالألعاب المشهورة عندهم حتى لعب السيف وركوب الخيل . ولذلك كانت الإنكليزية صحيحة البنية نشطة الحركة مشوقة القوم مشرقة الوجه قوية الإرادة . وقد أخذت تتشبه بالرجال ، وتجارتهم في أعمالهم . وتطرفت طائفة من المتهوّسات حتى طلبن حق التصويت في مجلس النواب ، وبالغن في ذلك وخرجن به عن طورهن الذي خلّقن له ، واستخدمن العنف في مطالبهن . ولا نظنهن إلا راجعات إلى الصواب . وحكمنا على المرأة الإنكليزية من هذا الوجه مثل حكمنا على المرأة الفرنساوية عند كلامنا عن أخلاق الفرنسيين :

«إن المرأة الإنكليزية خلقت لتهتم بشؤون بيتها وعائلتها ، فإذا تحولت عن ذلك إلى أعمال الرجال خرجت عن طبيعتها»

على أن المرأة الإنكليزية في أصل فطرتها كثيرة الخضوع لرجلها تستهلك في سبيل

راحته وراحة سائر العائلة ولو مهما كلفها ذلك⁽¹⁾. لكنها وهي عذراء تتمتع بما يمتع به الشاب من الحرية الشخصية في ذهابها وإيابها وقيامها وعودها . فإذا تزوجت انقطعت إلى بيتها ولم يعد يهمها سواه مع احترام زوجها ومعرفة حقه . فلعل المطالبات بحقوق الرجال من غير المتزوجات .



طريقتهم في الاستعمار

وترى الخلق الإنكليزي الأساسي -عني التعويل على الحقيقة مع الثبات- ظاهراً في طرقمهم السياسية ، كالاستعمار مثلاً فإن لهم فيه طريقة تحالف طرق المستعمرتين . فهم ينظرون من وراء الاستعمار إلى الفائدة الحقيقية لا يهمهم زخرف السيادة وأبهة الدولة والتفاخر بسعة السلطة بقدر ما تهمهم المصلحة الحقيقية في الاستعمار . وقد وجدوا بعين العقل أن المصلحة الحقيقية من الفتح أو الاحتلال إنما هي المرافق الاقتصادية أو المالية فيوجهون سعيهم إليها . ولا يهمهم بعدها أن تكون لهم سيادة إن لم يكن الغرض منها المنفعة الاقتصادية . ومن ثباتهم وطول أناتهم صبرهم على استثمار مطامعهم الاستعمارية أعواماً متطاولة ترسخ في أثناها أقدامهم ، أو تسنح لهم فرص يغتنمونها ، ويريدون بها حقوقهم .

ولهذا السبب رأيتهم لا يتوجهون وضع الحماية أو إعلان السيادة بل بعكس ذلك يتواهلون مع مستعمراتهم في الاستقلال الإداري حتى لا يبقى فرق يذكر بينه وبين الاستقلال الحقيقي . ويهتمم من البلد الداخل في حيازتهم أو تحت نفوذهم أن تكون مصالحهم المادية رائجة فيه ، ولا يبالون أن يجعلهم ذلك بطريق الاحتلال أو الحماية أو الاستعمار . وعلى هذا المبدأ حلوا قيود أستراليا وكندا والترانسفال وغيرها . ولا نرى مانعاً من أن يفعلوا ذلك في الهند وغيرها إذا تحققوا ضمن مصالحهم الاقتصادية وبقاء علاقتهم الودية ، وأن تكون لهم الأفضلية من الاعتبارات الأخرى .

(1) العبارة غير مستقيمة والمقصود هو أن المرأة الإنكليزية تبدل ما بوسعها في سبيل راحة زوجها

وعائلتها .

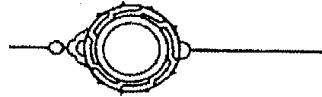
فالسيطرة التي بلغت إليها الأمة الإنكليزية في هذا العصر تتوقف على أخلاقهم أكثر مما على ذكائهم . إن الأخلاق التي ذكرنا أمثلة منها جعلت أربعين مليون إنكليزي يحكمون نحو 350 مليون نفس من أم شتى في القارات الخمس . وفيهم القوقاسي والمغولي والهندي والزنجي وغيرهم من طبقات الناس يتكلمون عشرات من اللغات المختلفة . إن الإنكليز استطاعوا ذلك بأخلاقهم المتينة وأساسها الثبات والتعويل على الحقيقة . وإنما بين الأم الداخلة في سلطانهم شعوبًا لا يقلون عنهم ذكاء ، ويفوقونهم في كثير من الموهب العقلية . وإنما تنقصهم الأخلاق الالزمة للتغلب أو الاستقلال .

المدنية الحديثة ومدنية العرب



فالإنكليز من أوضح الأمثلة للأخلاق الملائمة لروح هذه المدينة - وإن كانت لا تلائم المدنيات الأخرى . إذ لكل مدينة قواعد تبني عليها دعائمها ولا تصلح إلا بها . فمدنية العرب أساسها مناقب العرب في صدر الإسلام ، أهمها : الأريحية والنجدة والجوار والوفاء والحلم وسعة الصدر وكرم الخلق ونحوها مما لا يلائم المدنية الحديثة . كان الخليفة أو الأمير يغفو أحياناً عن القاتل ؛ لاعتبار قام بنفسه من قول سمعه أو فكر خطره ويعده ذلك أريحية . وكان القوم يتواصون بالغفور عند المقدرة ، والأخذ بأسباب الكرم ، يقيمون بيوت الضيافة ينزل فيها الأضياف أشهرأ لا يسألهم أحد من هم . وكان لهم ضرب من الارتزاق بالسخاء من الخليفة فمن حوله ، وأتباعهم وحواشيهم وأعوانهم يقيم في بيت الأمير أو العامل عشرات أو مئات من الناس يأكلون ويشربون ويلبسون ولا عمل لهم ، وقس على ذلك بما فعلناه في تاريخ التمدن الإسلامي . وهذه المناقب بعيدة عن مقتضيات المدنية الحديثة التي أساسها مبادلة الحقوق والواجبات ، لا حلم ولا عفو ولا أريحية ولا نجدة . وإنما ينال المرء من الرزق أو المنصب على قدر سعيه وموهبه بمقتضى القواعد الاقتصادية ، والاعتبارات السياسية . فلا يرتقي في هذا السلك غير العارف بأحكام السياسة الذي ينظر إلى حقائق الأشياء بالنظر إلى مصلحة الأمة ، ويحافظ على العدالة وشروطها ، لا ينفق

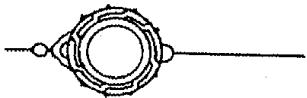
قرشاً إلاً في طريقه . وغير ذلك من المناقب الشائعة في أوربا لهذا العهد ولكل دولة أيام ورجال .



آثارها

لإنكلترا آثار معنوية في نفوس العقلاة مرجعها إلى الإعجاب بأخلاقهم وتربيتهم ونظام عائلاتهم حتى أعداؤهم فإنهم يعترفون لهم بسمو الأخلاق وثباتها ويحرضون أواهمهم على تحديها .

أما الآثار البنائية فإنها كثيرة في إنكلترا ، ولا سيما في لندن . وقد ذكرنا شيئاً منها في كلامنا عن هذه المدينة ، وعددنا ما فيها من الأبنية والشوارع وغيرها . ولا يستطيع المار في شوارعها وساحاتها غير الإعجاب بما يراه منصوباً هناك من التماضيل الفخيمة لمشاهير الرجال فإن ، الإنكليز كثيراً الاحترام لأسلافهم يقيمون لها التماضيل كما يقيمونها للقديسين . وكما يُعجب الفرنساويون ببونابرت وينصبون تماثيله في شوارعهم وحدائقهم وساحاتهم وقصورهم ، فالإنكليز يفعلون نحو ذلك بتماضيل ولنلن ولنسن ونحوهما . وناهيك بالقصور الكبرى والمعابد الفخيمة فإنها كثيرة في لندن فنكتفي ، بالإشارة إلى أشهرها ما وفينا لزيارتة في هذه الرحلة فنقول :



كنيسة القديس بولس

إنها قائمة في منتصف المدينة ، وهي أفحى أبنيتها وأعلاها ومن أقدمها عهداً . لم يتفق المؤرخون على أصل بنائها ، ولكنهم متفقون على أنه كان في مكانها معبد من زمن الرومانيين ثم خرب وأقاموا مكانه كنيسة سنة 610 م واحتراقت سنة 961م فأعيد بناؤها ، وتوالى عليها الخراب والترميم مراراً حتى جددت كلها في أواخر القرن السابع عشر على يد مهندس شهير اسمه خريستوفور رين ، بذوقوا ببنائها سنة 1675 وقت سنة 1710 ، وأنفق في سبيل ذلك 850,000 جنيه أخذت من الأهلين بضربيه

وضعتها الحكومة على الفحم الوارد إلى لندن . وكان حين هذا يستولي في أثناء هذه المدة على راتب سنوي مقداره 200 جنيه في السنة .

بنيت هذه الكنيسة على مثال كنيسة القديس بطرس في رومية لكنها أصغر منها . ومع ذلك فهي أكبر كنائس العالم بعد كنائس رومية وميلان وأشبيلية وفلورنسا . شكلها كالصليب الروماني . طولها 500 قدم وعرضها 118 قدمًا ، وعلو قبتها 364 قدمًا . قطر قبتها مئة قدم وقدهمان . وقطر قبة كنيسة القديس بطرس في رومية 139 قدمًا . ويزيد أهميتها في نظر الزائرين ما على جدرانها من النقوش والصور ، وما أقاموه في جوانبها من تماثيل عظام الإنكليلز وأكثر من كبار القواد⁽¹⁾ . فهي بهذا الاعتبار معرض عظمة إنكلترا وإنما يفوقها بذلك دير وست مونستر الآتي ذكره .

مدخلها الأكبر من جهة الغرب . وهي قائمة في الداخل على ركائز ضخمة مربعة الجوانب تشبه ركائز جامع السلطان أحمد في الأستانة وتشبهها أيضًا بالشرفة المستديرة الخيطية بأعلى تلك الركائز . يتوجه الداخل لأول وهلة أنها كنيسة كاثوليكية لكثرة ما يراه فيها من الصور ، لكنه لا يلبث أن يرى معظم تلك الصور تثل مشاهير الرجال . لا يستطيع الداخل إليها إلا التهيب بما يشاهده من فخامة البناء وسعة المكان وما تُصبِّ في جوانبه من التماثيل الرخامية والبرونزية . فيحسب نفسه في ساحة الحرب ، أو في ساعة الدينونة ، وقد اجتمع نخبة الرجال ليؤدوا حساباً عما فعلوه أو ليتفاخروا في مَنْ كان أشدُّهم بطشاً ، وأكثرُهم فضلاً في تعزيز العلم البريطاني ، وفي الجناح الأيسر من صحن الكنيسة تماثيل جماعة يعرفهم السودان مثل الجنرال القراء وكان لهم دخل في شؤون مصر⁽²⁾ ستิوارت قائد الفرقـة التي تعجلت الذهاب إلى الخرطوم لإنقاذ غوردون سنة 1884 ، وكنا في جملتها فأصيـب قائدهـا ستـيـوارـت برصاصـة في بطـنهـ في مـعرـكةـ اـنتـشـبتـ بيـنـناـ وـبيـنـ الدـروـايـشـ قـرـبـ المـتمـةـ . سـقطـ وـنـحنـ

(1) كلـا وـردـتـ وأـحـسـبـ الصـوابـ : وأـكـثـرـهـمـ مـنـ كـبـارـ القـوـادـ .

(2) العـبـارـةـ وـردـتـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ وـهـيـ مـضـطـرـيـةـ وأـحـسـبـ الصـوابـ : جـمـاعـةـ مـنـ الضـبـاطـ يـعـرـفـهـمـ القرـاءـ ، وـكـانـ لـهـمـ دـخـلـ فيـ شـؤـونـ مـصـرـ وـالـسـودـانـ مـثـلـ الجنـرـالـ ستـيـوارـتـ .. الخـ .

نراه ولا ننسى تلك الساعة الرهيبة ؛ لأننا كنا في أشد ساعات الخطر . وتمثل الجنرال غوردون ، وقد قتل في المطردام قبل وصول الحملة بيومين . وتمثل دوق ولنتون صاحب معركة وتربو ، وتماثيل الجنرال بكتن والجنرال بونسي قُتلا في وتربو . والأميرال نابيه قائد الأسطول الإنكليزي في البلطيق سنة 1854 ، وهناك طائفة من الأدباء وأرباب الأقلام بينهم رينولدس المصور وباتريك نابيه وهلاند المؤرخان .

وقس على ذلك التماثيل العديدة في الجناح الأيمن والموافق الأخرى يعرف القراء من أصحابهاالأميرال نلسون الذي أغرق الأسطول في أبي قير سنة 1798 ، واشتهر بمقام رفع فيها شأن الإنكليز في كوبنهاغن وترافلغار وغيرهما . وقد نقشت أسماء تلك الواقع على قاعدة تمثاله . وقد خسر ذراعه اليمنى في واقعة قادس ، فجعلوه في التمثال متسلحاً برداء يغطي تلك الذراع . ومنهم الجنرال ابركرومبي الذي قتل في أبي قير سنة 1801 ، والجنرال مور الذي قتل في كروتا باسبانيا . والأميرال هو الذي أنقذ جبل طارق سنة 1782 ، وفي بعض الحنایا تذكر للمقتولين في حرب القرم وحوله الأعلام التي كانت لهم هناك . ومن المشاهد الهامة في هذه الكنيسة قبتها ؛ لما تشرف عليه من الأبنية البعيدة فقد صعدنا إلى قمتها بسلم درجاته ستمئة وعشرون درجة ، فأشرفنا على لندن كلها ، كما أشرفنا على باريس من قمة برج إيفل . أما القبة فلها شأن خاص شاهدنا مثله وراء محراب كنيسة أريني بالاستانة . يعني تفخيم الصوت فإن حول قاعدة هذه القبة من الداخل شرفة مستديرة قطرها نيف ومئة قدم ، ومحيطها نحو 320 قدماً . يشرف المار فيها على صحن الكنيسة وتسمى «قاعة التهams» دخلناها من باب في بعض جوانبها فرأينا شيخاً يهمس في الحائط بصوت يكاد لا يسمعه الواقع بجانبه . فأوْلأً إلينا أن نذهب إلى مقعد في الجانب الآخر من تلك الشرفة . فمشينا ونحن نسمع الصوت يرتفع كلما بعدنا عن ذلك الشيخ . فلما وصلنا إلى الطرف الآخر سمعناه كالخطيب يتلو علينا خطاباً في تاريخ هذا البناء .

وتحت أرض الكنيسة سراديب مرصّفة بالفسيفساء ، فيها تماثيل وأضرحة للمشاهير أيضاً . منها ضريح للدوق ولنتن من الرخام السماقي قائم على قاعدة من الغرانيت وحوله الأعلام التي اكتسبها من أسبانيا ، والبرتغال ، وفرنسا . وبجانبه المركبة التي حملت جثته . وضريح بكتن زميله في وتربو . وفي مكان آخر يقابل

منتتصف القبة ضريح نلسون فبـه تابوت مصنوع من خشب السارية الوسطى من سواري الدارعة الفرنساوية «لوريان» التي أحرقها أسطوله في أبي قير سنة 1798 ، وبجانبه ضريح رفيقه كولننود ، وضريحان لنابيه ونورتسك . وتماثيل جماعات من رجال الأدب والتاريخ بينهم السير وليم هورد رسول أعظم مكاتب حربي في القرم . وأضرحة لنساء شهيرات في العلم وغيره .

قصر جيلد هول

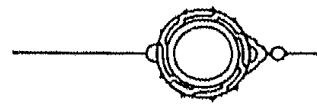


اشتهر هذا القصر بقاعته التي تلقى فيها الخطب العمومية . وفيها خطب روزفلت منذ بضع سنين خطابه المشهور الذي ذكر فيه مصر وسياسة إنكلترا فيها . يير الزائر من كنيسة القديس بولس إلى جيلد هول بشوارع هي أكثر شوارع لندن ازدحاماً - في جهة اسمها شيبسايد يساوي متر أرض فيها 250 جنيهاً .

بنيَّ هذا القصر للمرة الأولى في أوائل القرن الخامس عشر مقراً لقضاء ومجالس البلدية ثم تحرب وأعيد بناؤه وأنشئت فيه القاعة المذكورة وطولها 152 قدماً ، وعرضها 50 وعلوها 89 قدماً . تجتمع فيه المجالس البلدية للانتخابات ونحوها ، وتتلى فيها الخطب العامة . وفيها حوكم جماعة من المجرمين العظام مثل أرل سيري ، واللادي جان غراري وغيرها . وفيها تماثيل مشاهير الإنكليز ولاسيما ونلن ونلسن وشتام وبـت ومور . وفي قاعة أخرى تماثيل أخرى في جملتها تمثالان خشبيان غريباً الشكل يعرفان بياجوج وماجوح ولم نعلم سبب هذه التسمية .

وفي جيلد هول مكتبة فيها 143 مجلداً معروضة للناس . وفيها متحف صناعي للساعات ، وغيرها من المنتجات الدقيقة وخرائط كبيرة ، وقاعة صور فيها صور تاريخية منها صورة معركة جبل طارق بين الإنكليز والأسبان سنة 1782 ، وصور كثيرين من الملوك ، وصورة يوبيل الملكة فكتوريا الماسي سنة 1897 بالمركبة التي كان يجرها ثمانية أفراس . وتحت الأرض سراديب مثل سراديب كنيسة القديس بولس فيها قبور ونوايس قديمة .

نحن الآن على مقربة من بنك إنكلترا الشهير فلا ينبغي لنا أن غر به سكوتاً . بني سنة 1734 وأعيد بناؤه كما هو الآن سنة 1827 ليس في ظاهره نافلة لكنهم يضيئونه من الداخل مبالغة في الاحتفاظ به . أما البنك نفسه أي العمل المالي المعروف بهذا الاسم فقد أنشئ سنة 1697 ، وظل هو البنك الوحيد في لندن إلى سنة 1834 فأنشئت بنوك أخرى . لكنه لا يزال أعظمها جميراً ويتأثر عنها كلها بأنَّ الحكومة أذنت له بإصدار الأوراق المالية «بنك نوط» كان رأس ماله الأصلي 12,000,000 جنيه ثم تضاعف مراراً . عدد عماله ألف عامل ولا يخلو من 20,000,000 جنيه ذهب مختزنة في سراديبه المتينة و 25,000,000 جنيه عملة ورق بين أيدي الناس . وهو ينوب عن الحكومة الإنكليزية فيما يتعلق بالديون التي عليها وقيمتها 672,000,000 جنيه بين قبض ودفع وترصد . وفي البنك مطبعة تطبع أوراقه «البنك نوط» يصدر منها 50,000 قطعة كل يوم من فئة خمسة جنيهات إلى ألف جنيه . ويطبع فيها أيضاً البنك نوت الهندي . وألاتها بغایة الإتقان وطريقة طبعها تستدعي الإعجاب . ومن عادات هذا البنك أن يتلف كل ما يرجع إليه من أوراقه ولا يدفع للناس إلا أوراقاً جديدة خارجة من يحيى يد الطابع - لكنه لا يتلف الأوراق المرتجعة حال استلامها بل يحفظها خمس سنوات في خزائن من حديد ثلاثة يقتضي الأمر مراجعة شيء منها لشهادة قضائية أو نحوها ثم تحرق . وبلغ عدد ما يجمع عندهم منها في السنوات الخمس 80,000,000 ورقة وزنها 90 طناً وقيمتها المالية 1750,000,000 جنيه . وإذا فرشت الواحدة بجانب الأخرى في خط واحد تألف منها درج طوله 13,000 ميل . وفي البنك آلة لوزن الجنيهات الذهب وفرزها تزن 33 جنيهًا في الدقيقة فما كان منها ناقصاً لفظه خارجاً . وفي البنك مخزن لحفظ المجوهرات . ويحرس البنك شرذمة من الجنديين ليلاً ونهاراً



واقع على ضفة التيمس وهو من أقدم أبنية لندن وأشهرها . كان مقللاً للملوك ثم جعلوه سجناً للمجرمين العظام من الملوك أو القواد أو الأمراء . حوله خندق عميق يحيط به ردم سنة 1843 وجعلت الحكومة برج لندن الآن ثكنة للمجندين . ورممت جدرانه ليبقى حصناً . شكله مربع غير منتظم مساحة أرضه 13 فداناً عليها عدة أبنية يحيط بها سور مزدوج عليه الأبراج . يقال في تاريخ بنائه إنه يرجع إلى وليم الظافر . أقدم قصوره الآن «البرج الأبيض» بُني في القرن الحادي عشر . وهو فخم ولهم ذكر رهيب في التاريخ لكثرة من سجين أو قتل فيه من العظام . أشهر ضحاياه السير توماس مور قتل سنة 1535 ، وحنة بولين قتلت سنة 1536 وتوماس كرومويل قتل سنة 1540 ومرغريت بول سنة 1541 والملكة كاترينا هورد سنة 1542 والأميرال سيمور سنة 1549 واللورد سمرست سنة 1553 واللady جان غراي وزوجها سنة 1554 والسير جون إليوت مات فيه سنة 1632 وغيرهم كثيرون . ومن سجنوا ولم يقتلوا جون بليول ملك اسكتلاندا سنة 1296 ولليم ولسن الاسكتلندي سنة (1350) وداود برويس ملك اسكتلاندا سنة 1347 وجون ملك فرنسا أحد أسيراً في بوتيه سنة 1356 ودوقة أورليان والد لويس الثاني عشر ملك فرنسا سنة 1415 والملك هنري السادس وغيرهم . وكان في البرج مأسدة نقلت إلى مسرح الحيوانات العام .

وفي هذا البرج تحف تاريخية لا يوجد مثلها في سواه منها الأسلحة والألبسة والمجوهرات ، أهمها المسوغات الملكية سيأتي ذكرها . وأول ما يستلفت نظر الشرقي عند دخوله الباب الخارجي للبرج مدفع عثماني أهداه السلطان عبد المجيد لإإنكلترا سنة 1757 فإذا دخل البرج فأنهم ما يشاهده هناك المسوغات الملكية الإنكليزية ، وقد ذكرنا المسوغات الملكية الفرنساوية التي شاهدناها في متحف اللوفر لكن هذه أفحى وأثمن .

إن هذه المسوغات ، أو المجوهرات معروضة في غرفة صغيرة في وسطها دكة مثمنة الأضلاع يكاد يقرب شكلها من الاستدارة . عليها رفوف مرتبة بعضها فوق بعض

بشكل هرمي وضعوا تلك المصوغات عليها بحيث يراها المشاهدون . لكنهم أحاطوا تلك الدكة بسياج من شبك الحديد وألواح من الزجاج . وبين الدكة والحانط لم يكاد لا يتسع لمرور اثنين ، والحرس وقوف لرقبة المترجين . والمصوغات المشار إليها أكثرها تيجان مرصعة بالحجارة الكريمة بعضها قديم ، والبعض الآخر حديث وهي : «1» تاج القديس إدوارد صنع لتوسيع شارل الثاني . سرقه الكولونييل بلود سنة 1671 في جماعة من رفاقه بعد أن قتلوا الحارس لكنهم لم يفزوا بغنيمتهم «2» تاج الملك إدوارد السابع صنع في الأصل للملكة فكتوريا سنة 1838 ثم جُدد للملك أدولف سنة 1902 وهو من المصوغات الحديثة . مرصع بجواهر لا يقل عددها عن 2818 ماسة و300 لؤلؤة وجواهر أخرى . في مقدمه ياقوته يقال إنها كانت للأمير الأسود أعطاها إياها دون بادرو صاحب قسطنطيله سنة 1367 وقد وضعها هنري الخامس على خوذته في معركة اجنكورت؟ . تحتها ماسة كبيرة تعرف بالماسة الكولينية قدمتها حكومة الترسفال إلى الملك إدوارد سنة 1907 وهي تنسب إلى ماسة اسمها كولينا سيأتي ذكرها ، وفي مؤخر التاج حجر صغير يقال إنه كان لإدوارد المعترف «3» تاجولي العهد من الذهب الخالص غير مرصع «4» تاج زوج الملكة ذهب مرصع «5» تاج الملكة ذهب مرصع «6» تاج الملكة هو طوق من الذهب مغشى باللؤلؤ ، وقد صنع كاهماً للملكة ماريا ديست زوجة جيمس الثاني «7» صوبجان الملك إدوارد من الذهب الخالص طوله أربعة أقدام ونصف وزنه 90 رطلاً مصربياً . قبضته ضخمة كالتابع يقال إن فيها قطعة من ذخيرة عود الصليب «8» الصوبجان الملكي طوله قدمان وتسعة قراريط عليه صليب مرصع بالحجارة الكريمة «9» صوبجان الحمامه أو عصا المساواة على رأسها تمثال حمامه باسطة جناحيها «10» صوبجان آخر فيه صليب مرصع «11» الصوبجان العاجي للملكة ماريا ديست فوقه حمامه من العقيق الأبيض «12» صوبجان الملكة ماري زوجة وليم الثالث «13» مثال ماسة «كوه نور» الشهيره ، وهي من أكبر حجارة الماس المعروفة ، وزنها 162 قيراطاً ، والماسة الأصلية الآن في قصر وندسر ، وكانت قبلًا في حوزة ملك لاهور ، ووصلت إلى أيدي الإنكليز سنة 1849 لما فتحوا البنجاب . وشاهدنا مصوغات أخرى ثمينة منها أساور توسيع ، والمهماز الملكي ، وابريق زيت التتويج بشكل النسر ، والخاتم والملعقة والمملحة ، وغير ذلك ، ويقدرون

قيمة هذه المصوغات بمبلغ 3,000,000 جنيه ، وفي تلك الغرفة خزانة «فترينة» فيها أمثلة من الأوسمة الكبرى ، ومثال للمسافة الترسنفالية المسماة كولينا . أما كولينا الأصلية فقد قسموها إلى المسافة التي تقدم ذكرها في مقدم تاج الملك إدوارد ، وقسموا الباقي إلى ماسات وضعوها على الصويخان .

معرض الأسلحة

وفي برج لندن معرض للأسلحة والأدراع ، فيه أمثلة من المدفع والبنادق والسيوف والحراب والقوس لبعضها ذكر تاريخي . منها : سيف جлад ملك أود ، وأسلحة هندية الأصل أو عربية . ومنها المدفع الذي غنمته الفرنسيون من مالطة سنة 1798 وحملوه على الدارعة سنسيبل الفرنساوية ، فاسترجعه الإنكليز وهم على الباخرة سيهورس بقيادة القبطان فوت . وهناك أمثلة من آلات العذاب كالجامعة التي تقبض على الإبهامين معاً ، والفلق الذي يقبض على القدمين ، والأطواق بالإحاطة بالأعنق . وبينها فاس لقطع العنق صنع سنة 1679 وبجانبه البلاطة التي يسند العنق إليها عند القطع . ومن الأدوات الحربية التاريخية ملاعة التف بها الجنرال وولف لما جرح سنة 1759 وعليها مات . وثوب الدوق والمركبة المدفعية التي حملوا عليها جثة إدوارد السابع .

وفي قاعة أسلحة الفرسان كثير من الأدراع والرماح والخوذ والسياه على اختلاف الأعصر من القرن الرابع عشر فما بعده . وتماثيل أفراس عليها تماثيل فرسان باللبسة الرسمية والأدراع الشمينة . أحدها يمثل هنري الثامن على جواده وعليه درعه . وأخر يمثل جيمس الثاني سنة 1688 وأخر يمثل شارل الأول وعليه درع مغشاة بالذهب . وهناك غرفة لها ذكر تاريخي لأنها كانت قاعة المجلس ، وفيها تنازل ريتشارد الثاني عن الملك ، وغرف أخرى كانت سجوناً استخدموها الآن لحفظ السجلات وغيرها .

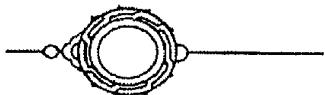
وفي ساحة البرج بقعة فيها نحاسة مربعة نقش عليها ما معناه «إنه في هذا المكان قطع رأس الملكة حنة» . وقد شاهدنا الأبراج والمخادع التي كانوا يستخدمونها للسجن ويأتون فيها ضروب الظلم والفتوك بلا حساب ولا تقدير . وناهيك بفنون التعذيب بما

تقشعر له الأبدان-إن من يطلع على ذلك ، ويرى ما عليه الأمة الإنكليزية اليوم من أسباب المدنية ، ومحاربة الجهل ، ومطاردة الظلم يعلم إن الأمة لا بد لها من المرور في أطوار من جملتها هذا الطور من الهمجية . وإن ذلك ليس خاصاً ببلد دون آخر ولا أمة دون أخرى .



دار الضرب

وفي هذا البرج بناء خاص لضرب النقود بني سنة 1811 ثم توسع 1882 وقد أتقتلت فيه صناعة الضرب وألاته . ومنها ما يصنع 120 قطعة من النقود في الدقيقة ، وقد بلغ ما ضرب سنة 1909 وقيمته 15000000 جنيه منها 11800000 قطعة فضة جنيه و4000000 نصف جنيه 3816000 نصف ريال و 3993000 فلورين و 6900000 شلين و 7028000 نصف شلين و 5600000 ربع شلين و 21256000 بنس فقس عليه .

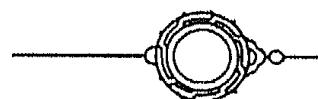


قصر وستمنستر

هو قصر فخم واقع على ضفة التيمس ينعقد فيه البرلمان الإنكليزي . وهو ينعقد في قاعتين فخمتين منه إحداهما مجلس الأعيان ، والأخرى مجلس العموم . وقبل الوصول إلى قاعات البرلمان يمر الزائر بقاعات عديدة . الأولى مغشاة بالصور في جملتها صورتان إحداهما تمثل معركة وترلو ، وقد فاز فيها الإنكليز . والأخرى تمثل واقعة ترافلغار ، وقد مات فيها نلسن . طول الواحدة منها نحو 15 متراً . يتصل منها إلى قاعة أخرى جدرانها من الخشب الملون عليه صور أشهر ملوك إنكلترا . ومنها دخلنا قاعة الأعيان في غير وقت الاجتماع . طولها 90 قدماً وعرضها 45 قدماً وعلوها 65 قدماً أرضها مغطاة بصفوف من المقاعد مغشاة بالجلد الأحمر تسع نحو 650 شخصاً . وللقاء 12 نافذة زجاجها مزين بصور ملوك إنكلترا وملكاتها منذ الفتح . وتضاء القاعة ليلاً بالكهرباء فتزداد جمالاً ، وعلى الجدران بين النوافذ تماثيل للبارونية الذين أنحدروا من الملك جون . غير ما على الجدران من النقوش

البدعة ، بينها الصور الجميلة للملوك وبعض المواقف الدينية . وفي صدر القاعة عرش يجلس الملك^(١) يصعد إليه ببعض درجات وإلى يمينه مجلس ولبي العهد . وخرجنا من طرف القاعة الآخر إلى غرفة فيها تعاليق ، ومواقف للبرانطي والأردية - لكل من الأعضاء تعليقة عليها اسمه . ومن هناك انتهينا إلى دهليز جدرانه مزданة بالصور التاريخية . ومنها إلى قاعة متوسطة الحجم فدهليز آخر اتصلنا منه إلى قاعة مجلس العموم . طولها 75 قدماً وعرضها 45 وعلوها 41 قدماً . وهي تشبه قاعة مجلس العموم . بشكلها لكنها أقل فخامة وأبسط رياشاً . عليها مقاعد مكسوة بجلد أزرق مخضر لا يسع أكثر من 476 شخصاً مع أن عدد أعضاء هذا المجلس نحو 670 وقد ترتبت المقاعد صفوفاً . وكرسي الرئيس في صدر القاعة عند طرفها الشمالي ، وإلى يمينه مقاعد لنواب الحكومة كالوزراء ونحوهم ، وإلى يساره رؤساء حزبعارضين . وبين يدي الرئيس طاولة يجلس إليها الكاتب . ويجلس الخبرون ومكاتبهم الجرائد على مقاعد فوق مجلس الرئيس . وفوقها مقاعد للسيدات . وتجاه مجلس الرئيس في الطرف الآخر من القاعة مقاعد للزائرين .

دير وستمنستر

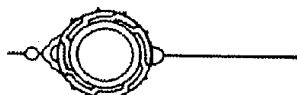


لهذا الدير شأن عظيم عند الإنكليز ، لأنه مجتمع مفاحرهم ، ومدافن عظامائهم أو تماثيلهم . يحوي من تلك المفاحر أكثر مما يحويه كل مكان سواه ولا يدفن فيه ، أو ينصب قتاله في أرضه إلا المتأذون بالشرف والفخر في خدمة الأمة والوطن . والإذن في دفن ميت هناك أعظم شرف تقدر الأمة أن تمنحه لذلك الميت .

والدير بناء قديم ولبنائه تاريخ طيل شكله يشبه من الداخل شكل كنيسة القدس بولس طوله 513 قدماً ، وأعرض نقطة فيه 200 قدم ، وعلوه مئة قدم وقدمان ، وعلو برجه 225 قدماً . دخلناه من بابه الشمالي ولم نجد نتوسط المكان ، ونلتفت ذات اليمين وذات الشمال حتى وقع بصرنا على ما هنالك من قبور العظام وتماثيل الكبار .

(١) كما وردت وأحسب الصواب يجلس عليه الملك .

وقد ساد السكوت وتجلى هيبة الموت فغلب علينا التهيب ، وخُيّل لنا أننا نسمع من كل قبر نداء ، ونرى في كل تمثال خطيباً . لا غرو ونحن بين بقايا أعظم رجال إنكلترا ، وفيهم القائد الباسل ، والسياسي الحنك ، والشاعر المفلق ، والخطيب المفوه ، والعالم الحكيم ، والخنزير العظيم . وقد تكافأوا جميعاً في خدمة أمتهم فنهضوا بها إلى أسمى منازل الدول . فأخذتنا العبرة وتذكرنا حال دولتنا في العالم السياسي ؛ فتشاغلنا عن تلك الهواجس بما بين أيدينا من مفاحير الآخرين . إذ لا فائدة من تلك الذكري وإن عرفنا الداء إذ لا سبيل لنا إلى الداء⁽¹⁾ . ونجولنا إلى⁽²⁾ أنحاء الديار ، نتفقد المدافن والتماثيل ، ونقرأ أسماء أصحابها ، فإذا فيهم نخبة الساسة والعلماء والشعراء والخطباء وغيرهم يعدون بالملائكة ، ويضيق هذا المقام عن تعدادهم فنذكر أمثلة من ذلك في مجتمع حسب الأماكن : منهم : وليم بت السياسي المتوفى سنة 1778 ، وجون هولس دوق نيوكاسل «1711» ، وجورج كانيں السياسي «1827» ، والجنرال مالكولم ، واللورد بالمرستون ، واللورد متسفيلد ، والأميرال ورين ، والسير روبرت بيل السياسي «1850» وفي مجموع آخر جورج غوردون أرل ايردين ، والسير توماس رافليس «1826» وشارلس جيمس فوكس ، وكابتن مونتاغيو ، وغيرهم . وهناك زاوية خاصة بالشعراء والأدباء فيها تماثيل جورج غروف الشاعر ، وماكولي المؤرخ ودوق أرغيل الشهير وشكسبير إمام شعرائهم . وروبرت برنس ، وتنسن ، وشارلس دكنس ، وجون ملتن ، ولون فلو ، وغيرهم من الشعراء والأدباء . وهناك زوايا للشرفاء ، وأخرى للأساقفة وغيرهم من يستغرق تعداد أسمائهم فقط عشرات من الصفحات فكيف بذكر مناقبهم .



متاحفها

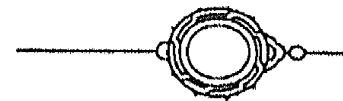
المتحف البريطاني : هو أعظم متاحف إنكلترا ، ومن أعظم متاحف العالم . يشتمل على التحف والأثار مثل اللوفر بباريس ، ويتميز عنه باشتماله على مكتبة نفيسة يندر

(1) كما وردت وألقنها الداء .

(2) كما والصواب في .

مثلها بين مكاتب أوروبا . وبناء المتحف فسيح تأسس سنة 1700 ونما ببنائه ومحفوياته حتى بلغ ما هو عليه الآن فنذكر تحفه التاريخية أولاً ثم نأتي إلى مكتبه .

دار التحف



هي عبارة عن المنحوتات والمصنوعات والمنقوشات من الآثار التاريخية ، والفنون الجميلة ، والتحف والذخائر ، ويصبح أن يقال في وضعها إنها جمعت آثار الإنسان من أول عهد العمران إلى الآن في القارات الخمس . وفيها من كل شيء أحسن ، مرتبة على الدول والأمم في قاعات لأثار الأشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والحيثيين والفرس واليونان والرومان والهند والصين واليابان والعرب في الجاهلية والإسلام ، وأمّا أوروبا الحية وأثارها ، وأمثلة من مصنوعات الأمم المتوجهة وأثارها ومظاهر عاداتها في أفريقيا وأستراليا وأمريكا وجزائر المحيط . ومصنوعات الأمم المتقدمة من الفنون الجميلة ، والتصوير ، والنقوش والمحفر ، وفيها أمثلة تدهش الناظر . ولكن هذا القسم من التحف في اللوفر أحسن منه في المتحف البريطاني وأوسع . وفي هذا المتحف مجموعة نفيسة جداً من النقود قديمها وحديثها ، ومجموعة للأوسمة وطوابع البريد ، وغير ذلك . غير آثار الإنسان قبل التاريخ .

وكل قسم من هذه التحف يشغل عدة قاعات وبينها من النوادر ما لا يوجد عند الأمم الأصلية التي أخذت التحف منها . مثال ذلك أن بين التحف المصرية مخطوطات من البردي لا مشيل لها في المتحف المصري بالقاهرة . وفيها حجر رشيد يعني الحجر الذي حلوا منه القلم المصري القديم « الهيروغليف » على أثر حملة بونابرت . فإن هذا الحجر اتصل إلى المتحف البريطاني قبل إنشاء المتحف المصري . شاهدناه في صدر الآثار المصرية في خزانة ، وهو أسود اللون مكسور من أعلى . وفي المتحف المصري نسخة من هذا الحجر لكنها غير التي استعانا بها على حل القلم المصري . وهناك آثار مصرية ثمينة ، وموميات عديدة ، ومصوّفات .

وقس على ذلك الآثار الأشورية والبابلية ولعلها في المتحف البريطاني أغنى منها في سواه ، وبينها ألف من السجلات القرميدة المنقوشة بالحرف المسماوي ، وبينها

القرميدة التي عليها قصة الطوفان كما يرويها البابليون . غير قراميد الصكوك والعقود والمراسلات ، وتماثيل قديمة جداً يظن أنها نحتت نحو 4500 قبل الميلاد . وفيها آثار نينوى وقصور آشورية كاملة نقلت من بين النهرين إلى هذا المتحف بجدرانها وسقفها وتماثيلها . وفي جملتها تماثيل رجال اشتهروا بالتاريخ مثل أسرحدون نقاً عن صورته على صخر عند نهر الكلب في بيروت ، وغير ذلك مما يطول بنا شرحه .

وهناك قاعات للآثار الدينية على اختلاف الأعصر والأمم . وفيها من المشابهة في الظواهر ما يدهش العقل . ومجموعة للساعات القديمة والحديثة والإسطرلاب وغيرها من صنع الأجيال الوسطى . وقد بحثنا بينها عن الساعة التي أهداها الرشيد لشارلمان فلم نقف على خبرها . وشاهدنا بين هذه التحف تمثال طاووس من فولاذ عليه نقوش فارسية وكتابة عربية وهو تمثال «طاووس» إله اليزيديين حملوه من بلد قرب ديار بكر . طوله متر وبعض المتر ، واقف على قاعدة كالطاعة⁽¹⁾ المقلوبة وعليها نقوش .

وفي قاعة المصنوعات الزجاجية مصنوعات عربية من مصابيح وكؤوس ونحوها عليها كتابة عربية بعضها من القرن الثالث عشر للميلاد ، وبينها قطع زجاجية عليها كتابة من عهد الدولة العباسية .

وفي قاعات العادات والأزياء والمصنوعات الشرقية ، سيف بعضها تاريخي ينسب إلى بلاده في الهند والصين ، في جملتها السيف الدمشقية الشهيرة والفارسية والهندية والأفغانية لكل منها شكل خاص . الفارسية منحنية والهندية والأفغانية معتدلة وكذلك الدمشقية ولكنها شديدة الصقل . قبضتها من ذهب بعضها بحد واحد ، والبعض الآخر بحدفين . وقس على ذلك السروج وأشكالها .



مكتبة المتحف البريطاني

يعرف القراء غنى هذه المكتبة بالكتب العربية مما يقرؤونه في تاريخ اللغة العربية عن الكتب الموجودة فيها . ويزيد عدد الكتب في هذه المكتبة على مليون كتاب في

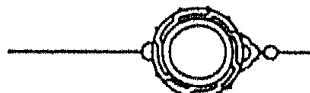
(1) كما وردت وأحسبها : كالطاسة المقلوبة .

اللغات المختلفة ، والمواضيع على اختلاف الأعصر . بينها مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية ، وفيها معرض ل تاريخ الخطوط بينها خطوط مشاهير الملوك والقادات والعلماء ، منها توقيع ملوك إنكلترا من ريكاردوس الثاني إلى الملكة فكتوريا ، وتوقيع ملوك آخرين . غير المخطوطات القديمة للكتب الهمامة ، ولا سيما التوراة في العبرانية والسamarية واليونانية .

وهناك مجموع ل تاريخ الطباعة فيه أمثلة من المطبوعات من أول عهد الطباعة إلى الآن منها نسخة من التوراة باللغة الألمانية طبعها غوتينبرغ سنة 1897 بمبلغ 4000 جنية ، وهي أقدم المطبوعات على الإجمال . ثم قاعات ل تاريخ الطباعة في كل مملكة على حدة .

وفيها أمثلة من الكتب المصورة بالألوان بعضها كتب حوالي العاشر⁽¹⁾ للميلاد ، ومن المخطوطات الشرقية أقدمها إنجيل في العربية والسريانية كتب على رق غزال في القرن العاشر للميلاد . وأقدم الكتب المخطوطة في العربية القرآن ، ومنه نسخة في المكتبة الخديوية يظن أنها كتبت في القرن الثامن . ومن المخطوطات العربية المصورة بالمتاحف البريطاني مقامات الحريري كتبت في القرن الثالث عشر ، وقد نشرنا صورة بها⁽²⁾ في الجزء الثالث من تاريخ أداب اللغة العربية .

متاحف أخرى



وفي لندن متاحف أخرى عديدة يطول بنا وصفها أهمها «تيت كاليري» ، ويسمى متاحف الصناعة الإنكليزية ، وهو يشبه متاحف لوكسنبرج في باريس فيه أمثلة من صنع أمهر المصورين والنحاتين الإنكليز . أكثرها خيالي يراد به الفن من حيث تشخيص العادات والأخلاق ، أو الواقع التاريخية تصويراً بالألوان أو نحتاً على الرخام . ومن أجمل المنحوتات المتقنة فيه تمثال ولتن على جواهه وصورة منحوتة تمثل

(1) كذا والمقصود القرن العاشر .

(2) كذا وردت ولعله قصد صورة لها أو عنها .

حادثة الابن الضال ، ونحوها من الواقع الشهيرة . ومن الصور صورة المارشال روبرتس على جواده ، ونابليون على الباحرة التي حملته إلى منفاه ، وأخرى ت مثل الطوفان وغير ذلك .

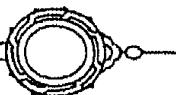
ومتحف ويلز : أصله من المتحف الخصوصية أهدته الليدي ولس المتوفاة سنة 1897 للأمة الإنكليزية ، وهو يساوي 4000000 جنيه واشترت الحكومة المنزل لوضع المتحف فيه بثمانين ألف جنيه سنة 1900 ويتنازع عن سائر المتحف بدقة ما يحويه من المصنوعات ، ويظهر للمتأمل في تحفه أن جامعها تأق في انتقامتها وسخى في ابتكاعها وأنه ذو ذوق سليم في الصناعة . ومن جملة ما شاهدناه فيها طاولة كتابة من زمن لويس الخامس عشر ، وصورة الملك جورج الرابع ، ومصنوعات مختلفة من القرن 17 و 18 ، وهناك مجموعة صور محفورة في العاج أو الذهب أو العظم أو منزلة من ميناء في غاية الدقة . ومجموع ساعات وإسطرلابات وإبر مغناطيسية من صنع القرون الأخيرة وألات هندسية . ورأينا مصباحاً عربياً عليه كتابة عربية منقول من أحد جوامع القاهرة . فهناك قاعة للأسلحة والأدراج والمدافع بينها بنادق قبضاتها منزلة بالعاج عليها نقش جميل مدهش وأدراج مذهبة نحو ما شاهدناه في برج لندن لكنها أتقن وأثمن - وقاعات عديدة للصور الزيتية منها صورة ت مثل رحيل يعقوب مع أبنائه إلى مصر ، وغير ذلك من الصور والمخورات والمصنوعات .

ومتحف مدام تيسو : وهو كثير الشبه بمتاحف جري芬 في باريس فيه مشاهد تاريخية مثلاً بالشمع كما حدثت حتى يتوهם الناظر أنه يرى الحقيقة كما هي . كل مشهد في غرفة خاصة منها موقف ولتن عند سرير نابليون وهو ميت ، وتمثيل موت نلسن ، ومقتل غوردون في الخرطوم ، وتولية الملكة فكتوريا . والملك جون يوقع ما يسمونه «ماجنا كارتا» ، ومشاهد أخرى شاهدنا مثلها في متحف غريفن . وتمثيل حديثة منها الملك إدوارد وقبطان التيتانيك ، وسان يتسان صاحب الانقلاب الصيني . وجمهور من عظماء الإنكليز منهم : غلادستون ، وسالس بوري ، وتشمبرلن ، ولويد جورج ، واسكويث ، وإمبراطور الروس ، ومفاتيح قلعة متيس . ومشاهير أميركا مثل روزفلت وافت وغيرها ، وإذا وقع نظرك على أحدهم ظننته ينظر إليك يوشك أن يخاطبك .

ومتحف فكتوريا وألبرت : وهو أثري تاريخي فيه مصنوعات إيطالية قديمة أكثرها ديني . بينها أمثلة من طرز البناء الإيطالي ، ومصنوعات إيطالية من البرونز والطاسات والأباريق والتماثيل والأصنام الصغيرة . وصور صنع بلنسية بأسپانيا في أوائل القرن الخامس عشر ، وهناك مصنوعات يونانية أكثرها كنائسي . وفي بعضها مصنوعات عربية منها قطعة من إفريز كتبوا عليه إنه منقول من جامع المؤيد بمصر . وساعة شمسية عليها كتابة عربية كاملة طولها متر وعرضها نحو نصف متر لم يذكروا مكانها . وقطعة من عتبة سبيل وغير ذلك . ومن التماثيل الضخمة في هذا المتحف قثال من عمود تراجان في رومية في قطعتين طول كل منهما نحو 20 متراً ، وعرض قاعدتها 21 قدماً بقدمنا . وهناك عدد كبير من الآثار الدينية ، وأمثلة عديدة من آثار رومية منقولة بالجلاس بينها رؤوس عشرات من القواد الرومانيين والقديسين . وعدة قاعات فيها أنواع من النسج والتطريز نحو ما شاهدناه في متحف كليني في باريس . ولا شك أن أصحاب الأزياء «المودة» يستفيدون من الاطلاع عليها لوضع الزي الجديد . ومنحوتات تمثل حوادث دينية في القرنين 13 و 14 وعلب وأقال من العاج المخمر في جملتها علبة صنعت في صقلية في القرن 13 م على النمط العربي عليها صور مذهبة .

وفيها مصنوعات أخرى دقيقة تشبه ما في متحف ويلس . وقاعات للأزياء والملابس حسب الأعصر والبلاد ، وهي مجموعة نفيسة لتاريخ الألبسة الشرقية والغربية . ويمتاز هذا المتحف عن سواه بهذه المصنوعات وإتقانها . منها سجادة طولها نحو 13 متراً كتب عليها «946 للهجرة» وأنها حملت من جامع أربيل . وقس ذلك . ومن المتاحف التي تستحق الذكر في لندن المتحف الوطني «نيشنال كاليري» وهو مجموع مصورات ومنوعات مثل متحف لوكسنبرج بباريس

بلاد الإنكليز خارج لندن



جمعت لندن أهم المتاحف والآثار ، ولكن في غيرها كثيراً مما يستحق الذكر . ونذكر منها ما وُفقنا إلى رؤيته في أثناء هذه الرحلة في كامبردج وأكسفورد ومانشستر .

كامبردج : وجدنا كامبردج بلداً عامراً بالمدارس والكلليات يكاد يكون قوام عمرانه على تلامذة المدارس ، وأساتذتها ومن يلحق بهم . وربما بلغ عددهم جمِيعاً نحو 4000 نفس . أما أهل البلد فلا يزيدون على 45000 نفس . وبما استلتفت انتباها أبنية تلك المدارس التي يتَّألفُ من مجتمعها «جامعة كامبردج» الشهيرة فإنها متشابهة الشكل قديمة الطرز ، وهو طرز الأجيال الوسطى . والبناء عبارة عن مربع كل ضلع منه مؤلف من غرف متناسبة صفاً واحداً في ثلاث طبقات بعضها للتعليم والبعض الآخر للأكل أو النوم . ووسط المربع حديقة أو فسحة خالية . وفي كل مدرسة كنيسة ، وتتألف المدرسة الواحدة من ثلاثة مربعات ، أو أربعة متقاربة يستطرق بعضها إلى بعض . وأبواب الغرف صغيرة على نسق واحد بسيط كثيرة الشبه بالأبنية الشرقية ، وقد سهل علينا الأستاذ براون مشاهدة أجزاء هذه الأبنية ، واستلتفت انتباها إلى باب غرفته وهو ثخانة الحائط فإذا كان الأستاذ في غرفته أغلق الباب الداخلي فقط ، فإذا خرج أغلق البابين جميعاً .

والسبب في بقاء هذه المدارس على الطُّرُزِ القديم أنها تأسست في الأجيال الوسطى ، فبنيت على طُرُزِها ، وحافظ أصحابها على ذلك الطرز . وقد وصفنا جامعة كامبردج وعدد مدارسها وتلامذتها غير مرة في الهلال .

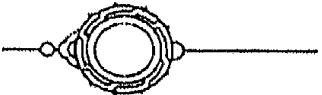
وفي كامبردج متحف لا يذكر بالنظر إلى متحاف لندن . لكننا شاهدنا فيه ترساً مستديراً عليه نقوش فارسية بينها اسم السلطان نادر شاه فإذا كان المراد به القائد الفارسي المشهور بهذا الاسم كان هذا الترس من التحف الثمينة .

أكسفورد : وهي تشبه كامبردج من أكثر الوجوه وقد عرفت بجامعتها واشتهرت بمكتتبها المعروفة بمكتبة بودليان ، فإنها من المكاتب النفيسة في الآثار الشرقية . وقد جاء ذكرها مواراً عديدة في أثناء ذكر أماكن الكتب بتاريخ أداب اللغة العربية . وفي كامبردج مكتبة نفيسة لكن هذه أوسع وأغنى . وقد سهل علينا الأستاذ مرجليوث رؤية كتب عربية نادرة فيها ذكرناها في أماكنها من تاريخ أداب اللغة . وفي مكتبة أكسفورد كتب خطية إنكليزية وأيرلندية دينية مصورة من القرن الثامن للميلاد .

منشستر : هي مدينة صناعية تكاد تكون معملاً كبيراً للكثرة ما فيها من المعامل والمتأجر . يتوسَّم القادر فيها ذلك قبل وصوله إليها بما يشاهده من الدخان المتكتاف

فوق أبنيتها . ولذلك كان أكثر سكن أهلها في الضواحي . وهي مثال للتجدد والعمل وتنافس المواهب الصناعية والتجارية . وقد أتيح لنا مشاهدة معمل للمغزل بجوارها فيه نحو 100000 مغزل و 20000 مغزل مزدوج و 900 عامل . ويدير مغازله آلات بخارية قوتها 2500 حصان . رأينا القطن يدخل بالات ويخرج مغزولاً خيوطاً دقيقة في غاية الضبط . ويفضيق بنا المقام عن وصف تجارة هذه المدينة ، وفي شهرتها ما يغني عن الإطباب

وقد سرّنا ما شاهدناه فيها من تقدم إخواننا السوريين ، فقد عرفنا منهم طائفة حسنة من كبار التجار كما شاهدنا في باريس . وبينهم غير واحد من أصحاب الثروة والتجارة الواسعة . وهم على الإجمال أهل سمعة حسنة ، وقد تخلق أكثرهم بأخلاق الإنكليز من الحافظة على الوقت والصدق في المعاملة ، والثاني في الحكم - وهي ميزة للسوري على سواه يعني مقدرته العجيبة في تطبيق أحواله على الوسط الذي يعيش فيه . فتجده في فرنسا كأنه فرنساوي بحركاته وكلامه ومعاملته وسائل أحواله ، وهكذا بإإنكلترا أو أميركا . والتجار السوريون في منشستر لهم معاملات واسعة مع أبناء بلادهم في أقطار العالم شرقاً وغرباً ولعملائهم ثقة عظيمة فيهم مثل ثقتهم بالتجار الإنكليز . ومن البيوت التجارية السورية في منشستر : محلات كحلا ، وغبريل ، وجباره ، ومطر ، ومجدلاني ، وخوري حداد ، وفرح ، وبحمدوني ، وغيرهم .



القسم الثالث: سويسرا

ضاق المقام عن الإفاضة في وصف سويسرا ، وقد زرنا منها : جنيف ، ولوزان ، وإيفيان . وهي من أحسن مصايف العالم لوقعها حول بحيرة من أكبر البحيرات . تحفّ بها الشواطئ المكسوة بالغابات الغضة والقرى العامرة . وكنا لما زرنا الأستانة منذ بضعة أعوام أدهشنا بوسوفورها بما على شاطئيه من التلال المكسوة بالأشجار والقصور ، وقلنا إنها فريدة في العالم . فلما شاهدنا جنيف وضواحيها إذا هي كثيرة الشبه بالفوسفور من حيث مناظره الطبيعية .

وفي جنيف بعض المتاحف والمعارض . وفيها جامعة شهيرة ، وكذلك لوزان فإن جامعتها كبيرة . وأما إيفيان فقد عرفت بعائتها العذب يحمل بالقناني الختمة إلى أنحاء العالم المتمدن .

ونختم كلامنا عن هذه الرحلة بفائدة اجتماعية فلسفية شاهدناها في فرناي بجوار جنيف ، وهي القرية التي قضى فولتير أعوامه الأخيرة فيها . ومنزله هناك معروض للفرجة بما فيه من الأثاث والأدوات في غرفة للنوم والمكتب والمائدة . مما يبعث على التفكير في مصير الإنسان . وإنما أثر في خاطرنا على الخصوص تمثال لفولتير نصبه أهل القرية في مدخل قريتهم فوق قاعدة من الرخام نقشوا عليها بالفرنساوية ما

ترجمته : «إلى فولتير المحسن لفرناري . وقد عمر لأهلها أكثر من مئة بيت ، وبنى لهم كنيسة ، ومستشفى ، وحوضاً للماء ، وسبيلاً ، وكان يقرضهم النقود بلا ربا . وقد جفت^(١) المستنقعات ، وأنشأ أسواقاً للبيع والشراء وأطعم أهلها في مجاعة سنة 1771 .»

وقفنا عند هذا التمثال ببرهة ، ونحن نعيid قراءة ما نقش عليه . وإنّ ما أدهشنا منه قوله «وبنى لهم كنيسة» . والقراء يعرفون فولتير ونظره في الكنائس ، وما يتبعها ، فكيف يبني للناس كنيسة؟ إنه لم يبنها لما يرجونه هم منها لأنّه لا يخراهم بل بناها لاعتقاده أنها من أهمّ أسباب سعادتهم . وأنّهم لا يستغنون عن الدين في معاملاتهم . وفي ذلك عبرة للذين يتوهّمون استغناء الناس عن الدين .

تمت الرحلة

(١) كما وردت ، ولعلها وقد جفّ المستنقعات .

المحتويات

7	استهلال / محمد أحمد خليفة السويدي
11	المقدمة / قاسم وهب
19	مسار الرحلة
21	نص الرحلة
21	القسم الأول: فرنسا
	نظام حكومتها
	عمرانها
	حالتها الاقتصادية
	حالتها العلمية
	التعليم بمصر
	الراسخ والتسليل
	ظواهر حضارتها
	المركبات العامة
	الإعلان
	الأزياء
	البور بوار «البخشيش»
	نظام الاجتماع فيها
	طبائع الفرنسيين
	الجمال
	الاقتصاد والترتيب
	معرفة الواجب

الثقة وقيمة الوقت وصدق الموعيد
لا يعنيني
المفاحرة بالرجال والحرية
طعامهم وشرابهم
العامة
العامة في فرنسا
المرأة في أوروبا
المرأة الفرنساوية
الإرساليات المصرية
الخلاصة
آثارها
آثار فرنسا المعنوية
فضصلها على الشرق
آثار فرنسا البنائية
نوتردام
كنيسة لاوفير في ليون
قصر الأنفاليد في باريس
ضريح نابليون في قصر الأنفاليد
القصور والراسخ وغيرها
متاحفها
متاحف الفاطميين
متاحف باريس
متاحف اللوفر
المنحوتات الشرقية
معارض الصور
معارض المصوغات والمجوهرات

مصنوعات شرقية
المكتبة الأهلية
معرض الأوسمة
أثran عربيان
متاحف لوكسنبرج
متاحف كليني
متاحف جريفن
متاحفها في ضواحي باريس
فرساي
متاحف فرساي
تربيانون
قصر ماليميون
السوريون في باريس

85

القسم الثاني: إنكلترا
نظام حكومتها
عظمتها وعمرانها
ثروة الأمة الإنكليزية
حالتها العلمية
لندن
الفرق بين لندن وباريس
نظام الاجتماع فيها
ضرائب الدخل
العامة والعنابة بهم
أخلاقي الإنكليز
- الثبات والتعويل على الحقيقة

- الكبراء والأنانية
- التربية البدنية والعقلية
- الصدق والوفاء
- الحافظة على التقاليد
- التدين والنظام
- الشعور بالواجب
- المرأة الإنكليزية
- طريقتهم في الاستعمار
- المدنية الحديثة ومدنية العرب
- آثارها
- كنيسة القديس بولس
- قصر جيلد هول
- بنك إنكلترا
- برج لندن
- معرض الأسلحة
- دار الضرب
- قصر وستمنستر
- دير وستمنستر
- متاحفها
- المتحف البريطاني
- دار التحف
- مكتبة المتحف البريطاني
- متاحف أخرى
- الإنكليز خارج لندن
- القسم الثالث: سويسرا



المرآة

هذه الرحلة من بين الأعوام التي حملت المرآة جمبي زيدان،
أعادتها إلى الورني سلسلة "الرقياد للفتاوى" بطبع للفتوى
العربي فرصة للطلاع على ترجمة من آثار واحد من أبرز علماء
النفسيين العرب.

لم تكن رحلة جمبي زيدان إلى أذربايجان سنة 1912 رحلة
بسجدة واحدة بقدر ما كانت رحلة علمية عميقة، جمعت
القسام بما في آخر العصر للذكى وصفاً مفصلاً وتفصيلاً
أحمد بن الدين الغزوي في الوقت الذي كانت عليه عدوى المسلمين
تشتعل فيه إلى الخ دروع من يرقى الحلف، والسير في كل الأهم المدنية
أذربايجان التي يبين "ما يحيى" في قببها من عوامل تأسس الدينية،
بالنظر إلى طباعتها وعادتها، وأخذها، فاختار أهتم العناديين
التي قاسى بها الدين الإسلامي ليقدّم للفتوى، العربي وصف المنهج

يندفع عنهم من تفضيلات فنون الكتاب العبر
ونظمها الرقيق، ونظمها شوارعها وأسواقها،
ويمكتبها، وآياتها، وحياته الناس فيها، ووصف
أذربايجان، ومن أعز ما ينقدم في نيشن حقوقها في الله
الشرف التي قد نصل إلى حدود السلطان في بعض الأحيان

Bibliotheca Alexandrina



0359040

دار
الكتاب
الوطني
العربى

